363

إصدارات الدكتور عادل صادق حصريا لدار الصحوة

A.M.

http://www.maktbtna2211.com/

امرأة عاجزة عن الحب

A Woman Can't Love

الدكتور
عادل صادق
أستاذ الطب النفسي

امرأة عاجزة عن الحب

A Woman Can't Love

Sunday
2/6/2013

الدكتور عادل صادق في سطور

- ولد الدكتور عادل صادق في التاسع من أكتوبر عام ١٩٤٣ بمحافظة القاهرة، وكان والده يعمل ضابطاً بالجيش المصري.

- كان ترتيبه الأول وتبعه ستة من الأشقاء، توفيت إحداهم في طفولتها تاركة ذكري أليمة في الأسرة.

- التحق بمدرسة المنيرة وأظهر التزاماً وحباً لدراسته ووداعة وعطاء تجاه قرنائه، مما أثار إعجاب وتقدير المحيطين به في هذه السن المبكرة.. ثم التحق بكلية الطب بناء علي رغبه والده - حيث كان يرغب في دراسة الأدب والفن والموسيقى - ولكنه بالرغم من ذلك أظهر تفوقاً واضحاً، فقد كان يؤمن أن علي الإنسان أن يقوم بواجباته ومسئولياته علي أكمل وجه.
وأثناء الدراسة، أهلته شخصيته الكاريزمية والقيادية لأن يكون رئيساً لإتحاد الطلبة.

- تزوج عام ١٩٧٠ من زميلته في الدراسة بعد قصة حب طويلة، وأثمر هذا الزواج عن نجله الدكتور هشام ثم كريمته لينا.. وكان لأبنائه نعم القدوة والمثل الصالح، ولم يشغله نجاحه وعمله عن الاهتمام بأدق تفاصيل حياتهم وتوجيههم.

- سافر إلي إنجلترا عام ١٩٧٣ للدراسة، واستمر في تحقيق إنجازات علمية متواصلة حتى علم بمرض والده - الذي أقعده - فقرر العودة إلي مصر واعتبرها مشيئة الله في أن يبدأ مشواره في بلاده.

Design By Abdul Rahman Magdy

الصحوة
ALSAHOH

دار الصحوة للنشر والتوزيع
48 شارع مجلس الأمة - القاهرة
تليفون وفاكس 594 43 279 202+
بريد إليكتروني
Daralsahoh@gmail.com

الدكتور علي محمّد الصَّلّابي

كتابنا القادم

الخليفة الراشد والمصلح الكبير

عمر بن عبد العزيز

ومعالم التجديد والإصلاح الراشدي على منهاج النبوّة

المكتبة العصرية
صيدا - بيروت

امـــرأة
عاجزة عن الحب

د. عادل صادق
أستاذ الطب النفسى

القتل من أجل الحياة

تنام المدينة مثلما ينام الإنسان . . تسترخى وتغمض جفنيها، تهدأ أنفاسها وتنتظم . . تطفح السكينة على وجهها . . يذهب عنها الغيظ والحنق النهارى . . يغادرها الشر مثلما يغادر أى كائن نائم . . النوم والشر لا يجتمعان إذا نظرت إلى أعتى الأشرار وهو نائم تجده طفلاً يستثير لديك مشاعر الرحمة، وحينئذ تكره النهار الذى يملأ النفوس بالضغينة ويستحثها على العدوان والبغى والتآمر .

ولكن لا تصلح حياة بدون نهار . . ويبدو أيضًا أنه لا تصلح حياة بلا شر . . الشر يفسح لنا الطريق لنعرف الخير، وأصل الخير هو الرحمة . . ورحمة الله وسعت كل البشر مهما كانت أخطاؤهم فالإنسان يخطئ ليصيب . . ويقسو ليرحم . . والإنسان ضعيف . . يشيخ ويمرض ويموت . . لا يبقى شىء على حاله . . دوام الحال من المحال، ويتعاظم الشر مع الشباب . . ويخبو كلما انحنى الظهر وثقلت الأقدام . . والوعد بالجنة يعجل بطلب المغفرة قبل فوات الأوان فالموت المفاجئ احتمال قائم . . والتأجيل مرفوض . . وأكثر ما يدمى القلب هو الغدر . . الخديعة . . التنصل من الوعد . . ولكن قصتى قادتنى إلى ما هو أسوأ من الأسوأ إلى ما هو شر من الشر . . ما تعرضت له لا يدمى فقط القلب ولكن يصفعه . . يفتته . . أو يدفعه للتوقف المفاجئ لتنتهى الحياة ويتوقف الألم!

ولكنى قاومت لكى أستمر لا أريد لحياتى أن تنتهى فأنا أريد أن أعيش . . استمتاعى بالحياة يربطنى بها . . فعلى الجانب الآخر الخير والجمال . . فمثلما تصحو المدينة ويتصاعد شرها فإنها أيضًا تنام ويشملها الخير والجمال، ورغم أن النهار يرهقنى فإن الليل يداوينى . . يهدهدنى . . يؤنسنى صمته . . تصفو نفسى . . أما البهجة فتأتينى حين يكتمل القمر . . سلام فى سلام . . وجمال فى جمال . . فكيف أحرم نفسى من كل ذلك؟! ولذا لابد أن أدافع عن بقائى وأن أحمى وجودى وأن أقف فى وجه الشر . . والشر لا يوقفه إلا شر مثله . والشر الذى ملأنى وفاض، كان من أجل أن أحيا، شر من أجل الحياة وليس شراً من أجل الشر، إنه شر فى مواجهة شر أعتى منه . . شر مرهون بشر آخر .

لقد قررت أن أقتل . . وحين تأملت الأمر تعجبت . . كيف ينقلب إنسان مسلم إلى مجرم؟! . . كيف أزهق روح إنسان آخر؟! . . كيف أواجه نفسى بعد أن أتم جريمتى؟! . . كيف أحمل لقب قاتلة . . كيف أتوارى عن ضميرى ولا يواجه أحدنا الآخر؟!

وهل ممكن أن يتحول إنسان من الخير إلى الشر بهذه البساطة . . إذن أى إنسان من الممكن أن يرتكب أى جريمة تحت ظروف معينة . إذن الظروف هى التى تتحكم فى سلوك الإنسان، وليس طبيعته الأصلية . . لقد درست فى الجامعة أن السلوك محصلة الاستعداد الشخصى والضغوط الخارجية . ولكن يبدو أن هذا رأى غير دقيق أو أن حجم الاستعداد الشخصى نحيل عند المقارنة بأهمية العوامل

الخارجية . إلا إذا كان الاستعداد الشخصى أمرًا يظهر فى الوقت المناسب حين تدعو الحاجة إليه ، وهذا معناه أننى مجرمة بالطبيعة وشريرة بالسليقة مما جعل قرار القتل هينًا فاتخذته بسهولة . . إننى فى حيرة من أمر نفسى ، ما إن اتخذت قرار القتل حتى ملأتنى الحيوية وهدأت نفسى واستراح خاطرى ، شعرت بأننى فديت حياتى بهذا القرار . .

ولم أحاول أن أقدم لنفسى تبريرات ساذجة بأننى سأخلص العالم من إنسان شرير ، وبذلك يكون القتل من أجل الخير . . القتل هو القتل . . والقتل جريمة . . وأنا سأقتل لأحمى حياتى . . لأستمر فى الحياة لأننى أحب الحياة ، ولأننى أستمتع بالحياة . . أما كيف أصبحت قاتلة فهذا أمر لا يهم . . المهم أن القتل علاج . . القتل شفاء . . القتل يحمى القلب من التفتت فى مثل حالتى .

كما لم يكن أمامى أى وسيلة أخرى لحماية نفسى . بل ربما استنفدت كل الوسائل السلمية فلم تفلح . لأن الشر لا يجدى معه إلا الشر . . مثلما لا يفل الحديد إلا الحديد .

وكانت مشكلتى الثانية فى حوارى مع نفسى هى : كيف أقتل إنسانًا كنت أحبه؟ وهل أنا كففت فعلاً عن حبه؟ وإذا كنت قد كرهته فهل تنقلب عواطف الإنسان لأى سبب من أقصى الحب إلى أقصى الكراهية؟! . . هذا أمر مخيف . . كيف نثق بالعواطف؟! بل كيف نثق بالإنسان؟! ألا يوجد ثبات واستقرار واستمرارية؟! كيف

نطمئن إلى الغد؟! هل حقّاً صديق اليوم هو عدو الغد، وعدو اليوم هو صديق الغد؟! إنه شيء مخيف.. هل هذه هى طبيعة البشر أم طبيعتى أنا فقط؟!.. لقد أصبحت أمام خيارين.. إما أن أصدق أن هذه هى طبيعة البشر وإما أن أواجه نفسى ولا أخدعها وأعترف بأن هذه هى طبيعتى أنا الخاصة، والتى تختلف عن طبيعة غالبية الناس وتتفق مع طبيعة القلة التى لديها الاستعداد الكامن للشر، والتى ليس لديها الثبات والاستقرار فى المشاعر!

وتساءلت بجزع: أيهما أفضل؟ أأسيء الظن بالناس أم أسيء الظن بنفسى؟ وبلا تردد أجبت: إنه أهون على أن أسيء الظن بنفسى ولا أسيء الظن بالناس.. إذا أسأت الظن بكل الناس معناه أننى أسيء الظن بالحياة.. يصبح الشر هو أساس الحياة ومحركها وباطنها وظاهرها.. يتساوى ليل المدينة مع نهارها.. يتساوى القبح والجمال. بل لا يوجد معنى للخير.. يصبح الخير ادعاء وأكذوبة ومواربة.. لو أن الحياة كذلك لفضل الناس الانتحار على الحياة. إننى أعترف بملء صوتى وكل إرادتى بأننى شريرة!.. ولذا قررت أن أقتل إنسانًا كنت أحبه وإليكم قصتى...

اختارنى من بين زميلاتى الجميلات بالرغم من توسطى الجمالى.. إلا أننى كنت متميزة بروحى المتوثبة ونضجى العقلى المبكر ورومانسيتى التى كانت تجد متنفسًا لها فى أشعارى.. وذلك بالإضافة إلى قوة شخصيتى التى كانت تغرى البعض بالارتكاز علىَّ وطلب المساعدة والمشورة.. أما هو فكان أكثر ما يميزه جمال

وجهه الذى طغى على المظاهر الذكرية الخشنة مما كان يوحى بأنه فى حاجة إلى فتاة قوية تساعده على مواجهة الحياة . وربما كان ذلك هو دافعه للوقوع علىَّ . ولم يستغرق الأمر وقتًا طويلاً حتى صرنا حبيبين . . وفى الجامعة لابد من التخصيص . . أى أن فلانًا وفلانة مرتبطان بعلاقة خاصة . . كان ذلك منذ خمس سنوات وكنا فى السنة الأولى من دراستنا الجامعية .

وأى علاقة عاطفية تنشأ بين زميلين فى الجامعة تبدأ بالرومانسية المحضة ثم تتطور تدريجيّاً وتقفز إلى أعلى وإلى الأمام، ولكنها أبدًا لا تصل إلى العلاقة الكاملة خاصة بين أبناء الأسر المتوسطة والمحافظة التى ما زال الدين يمثل أحد أركان حياتها المهمة . وكنت أنا متدينة . أما هو فكان نصف متدين وتعبير نصف متدين كنا نطلقه على الذين يؤمنون بالله وكتبه ورسله، ولكنه لا يؤدى العبادات المفروضة عليه .

وصلت علاقتنا إلى المستوى المعتاد لمن هم فى مثل حالتنا، والتى لا تتجاوز اختطاف القبلات حين تسمح الظروف بمكان يخلو من العيون المتلصصة . ورغم ندرتها، ورغم أنها كانت تؤدى على عجلة دون تمعن فإنها كانت قبلات نارية تلهب الجسد كله وتثير العطش أكثر مما تحقق الارتواء وكانت مصحوبة بالبهجة والإثارة، خاصة أننى كنت أحبه وكنت أستشعر إخلاصه . . وبداية القبلات تكون مصحوبة دائمًا بوعد الزواج . وتعاهدنا على أن نتمم ذلك بعد التخرج مباشرة .

إلا أن الضباب كان يغطى حتى المستقبل القريب فلا تراه أعيننا وبالتالى لا نستطيع أن نحدد موقع واتجاه خطواتنا. كنا فقط نتمنى ولكن لا نملك فرصة التخطيط الدقيق. كان يقول لى سأتزوجك بعد التخرج مباشرة، ولكن كيف سيتحقق ذلك فإنه كان لا يعرف. ولأننى كنت أملك شجاعة مواجهة الحقائق فإننى كنت أسأل السؤال بصوت مرتفع وأحاول أن أجيب عنه بنفسى.. وكانت الإجابة هى استحالة أن نستطيع أن نتزوج ولو حتى بعد عشرين سنة من التخرج!

وكان اليأس يتملكنا فى أحيان كثيرة فكانت القبلات هى العزاء الوحيد.. إلا أن هذه القبلات كانت تضنينا وترهق أجسادنا الشابة الفاترة القوية والجائعة بشدة وكنا قد اقتربنا من سنة التخرج، وفاجأنى فى يوم بفكرة أن نتزوج عرفيّاً. ورغم شيوع هذا الأمر خاصة فى مجتمع الجامعة فإننى كنت أجهل تفاصيله.. شرح لى الأمر فقلت إن هذه علاقة جنسية مغطاة، إنها ورقة التوت أو ورقة الحياء. إنها محاولة لإضفاء الشرعية وصبغ الحلال على شىء حرام وبذل جهداً لإقناعى بصحة هذا الزواج وكنت على استعداد للاقتناع أو بى رغبة شديدة للاقتناع، ليس لأنى غير قنوعة بالقبلات القليلة السريعة المغنية، ولكن لأن اليأس كان يحاصرنى وثقتى بعدم إمكانية تحقيق الزواج فى الوقت الذى حددناه.

وتزوجنا عرفيّاً.. مجرد ورقة وشاهدين من زملائنا.. ولكى تكتمل صورة الزواج ومعناه لا بد من الفراش الواحد وما يعنيه هذا

الفراش من علاقة كاملة . . أى زوج وزوجة ولكن بتخطيط محكم ألا يكون هناك أطفال .

لم يكن لنا فراش دائم ولكننا كنا ننتقل من مكان إلى آخر ، ولا أستطيع أن أدعى أننى كنت غير سعيدة . . على العكس . . كنت راضية مرضية . . وأرجو ألا يسىء أحد الظن بى . . لم يكن رضاى بسبب الإشباع الجنسى ، ولكن لأننى حققت حلمى ولو بشكل جزئى ، لقد أصبحت زوجة وحبيبى أصبح زوجًا لى . كان يهمنى جداً لقب زوجة . وقلت إن السعادة الحقيقية للمرأة فى هذه الحياة أن تصبح زوجة . . أن يكون هناك رجل فى حياتها يحمل لقب زوج . . زوجها . . ملكها الخاص!

وتخرجنا ولم أتعجله لإعلان الزواج بالشكل الرسمى التقليدى فكنت أدرك استحالة ذلك فى الوقت الحالى . . وحدث تطور غير متوقع حملت . . وتصورت أنه لا يوجد إلا حل واحد . . وهو أن نتزوج أو على الأصح بعقد رسمى ومعلن وفى وسط الأهل . . ولم يكن لدى أدنى شك فى تطابق رأيه مع رأيى فى هذا الشأن . . وأطلعته على الخبر السار . . وكأنما تلقى خبر وفاة إنسان عزيز وأمرنى بالإنزال الفورى للجنين . . أى أجهض نفسى وتصورت فى البداية أن ذلك راجع للظروف الاقتصادية التى لن تسمح فى الوقت الحالى بإيجاد عش الزوجية . . ولكنه دون أن يطلب منه أفصح عن وجهه القبيح وروحه الشريرة ونفسه المتلوية .

أخبرنى أننا لن نتزوج على الإطلاق . . لا أقول إننى صعقت فقد تصورت فى البداية أن ذلك راجع إلى حلقة اليأس المحكمة حول عنقه وعنقى، فالمستقبل مظلم مظلم مظلم، ولذا لم يكن فى حاجة إلى أن يبدى تفسيراً آخر . . ولكن ربما لأنه توقع أننى سأحاول أن أبسط له الأمر وأزيل من أمامنا بعض العقبات فتقل قبضة اليأس حول عنقنا، فإنه بادر بالتأكيد على أننا لن نتزوج لأننى لست بالفتاة التى تصلح زوجة، فلقد فرطت فى نفسى له وأنا طالبة ورضيت بالزواج العرفى بالرغم من أننا ندرك معًا أنه ليس زواجًا ولا يحزنون. وأنه إذا فكر فى الزواج يومًا فإنه سيختار فتاة تعرف كيف تحافظ على شرفها . . وكان ذلك آخر لقاء بيننا . . وانشغلت على مدى شهر بعملية الإجهاض ومداواة جراحى النفسية حتى جاءنى خبر ارتباطه رسمياً بإحدى الزميلات، بل تحدد موعد الزفاف فى خلال شهور قليلة. وانطفأ حزنى وزال ضعفى وتمكلتنى قوة مارد . . وقلت لنفسى هذا أسوأ إنسان خلقه الله . . إنه ظل الشر على الأرض . . ولا أدرى أى روح لبستنى. هل روح الانتقام العادل أم روح الشر المطلق؟! . . قررت فى لحظة أن أقتله . . نعم أقتله . . قتلاً . . ربما بسكين أو رشق رصاصة فى منتصف رأسه أو أضع له سماً فى طعام أو شراب . . المهم أن يموت . . أن يختفى من هذه الحياة . . فهو إساءة للحياة والأحياء . . لقد أماتنى مرة ثالثة حين قرر الزواج السريع . . ولكنى لا أريد أن أموت . . أريد أن أعيش . . ولكن لن أعيش إلا إذا قتلته!

الحياة لا تحتمل وجودنا نحن الاثنين . . إما أنا وإما هو ، إما المظلوم وإما الظالم . . إما المخدوع وإما المخادع . . إذا عاش هو سأموت أنا . . وإذا مات هو سأعيش أنا . . حياتى من موته . . وأنا هنا لا أعنى العدل والقصاص . . ولا أريد أن أشفى غليلى بالانتقام ولكننى أريد أن أحافظ على توازنى إلى حدٍّ ما فى هذه الحياة . . الحياة لا تحتمل وجود هذا القدر من الظلم ، والمظلوم لا يمكن أن تستمر حياته تحت مظلة الظلم البين الذى وصل أقصى مداه ومعلنًا عن نفسه بتبجح إلى حد الفجور . . استمرار الظالم فى هذه الحياة يؤدى إلى حالة من الخلل وعدم التوازن تُودِى بحياة المظلوم .

أنا الآن لست حزينة ولست مغتاظة . . ولا أدعى شجاعة الفارس النبيل الذى يريد أن يخلص الحياة من الشر ، ولكنى ميتة أريد أن أعود للحياة وشرط عودتى أن يموت الذى ذبحنى . . أنا أدافع عن فكرة . . أقر مبدأ . . أرسى قواعد حكم جديد . . أضيف إلى مفاهيم الحياة مفهومًا جديدًا عن استحالة استمرار حياة الظالم والمظلوم معًا ، وأن أحدهما يجب أن يذهب إلى الجحيم . . أقصد جحيم الموت . . فالحياة تستحق أن نحياها إذا كان فيها توازن . اتصلت به وقلت إنى غفرت له ، وإننى أريد أن أقضى آخر ليلة معه سرآ دون أن يعرف أحد . . تخفيت وذهبت . . ونهشنى بمجرد أن لقينى ثم نام . . ولأول مرة لا أرى الشر يغادر وجه إنسان حين ينام . . بل طفح شره وهو نائم . . فعرفت أنه حالة غريبة ، ربما هو الشيطان يعيش على الأرض . وبمشاعر باردة جداً دون أدنى وجل

أو اهتزاز ودون حتى كراهية غرست السكين فى الشريان الرئيسى فى رقبته ثم أعدت غرسها فى المنتصف لتمزق القصبة الهوائية فلا يستطيع أن ينطق إلا أنه ظل ينظر إلىَّ حتى تهاوى جفناه فعرفت أنه مات . . غادرت المكان وقلبى يرقص بعودتى للحياة!

●●●

رق الحبيب

تختلف ساعة الفجر عن ساعات الليل والنهار وأقصد بها تحديداً نصف الساعة السابق على أول إطلالة شعاع نور على الأرض، ونصف الساعة التالى لهذه الإطلالة حيث يتوافر النور بغزارة، فنستبين الطرق المؤدية إلى بيوت الله وإلى أماكن العمل وأى عابر طريق خلال هذا الوقت إما أنه ذاهب للقاء أو ذاهب إلى عمله، ولحكمة لا يتصف بها إلا الحق جعل ثواب لقائه يتساوى مع ثواب العمل.

وحين يمضى الإنسان متلمساً طريقه بقدر ما يسمح به الضوء مستنشقًا هواء قد نقَّاه ورطَّبه الندى، فإنه يشعر بالانشراح، آه من انشراح الصدر حين الفجر، مهما كانت الأحزان التى تجثم على الصدر فإن انفراجةً ما تبعث على الهدوء النسبى تخفف من عبء الأثقال وتهدئ من الروع وتسمح بتسرب بعض الأمل المحمل بالسرور. وأتصور أن الفجر قد جعل لذلك، و﴿أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ﴾ [الشرح: ١] وإن قيلت فى موضع آخر، إلا أنها آية الفجر الساحر المهيب البسيط.. والوديع الجميل.. الرقيق.. جالب الفرح ماحِقِ الأحزان مثبت القلوب!

وما أسعد من استجاب للنداء ونهض وتوضأ وصلى. ثم راقب السكون والسلام اللذَين يلفان الأرض ومن عليها وكأنها تواصلت

مع السماء فصارتا رقعة واحدة، وتواصل الإنسان مع ربه فصار قويًا . . فصار آمنًا مطمئنًا .

والفجر دليل حركة وحياة فهو فاصل بين ليل راحل ونهار قادم، إلا أنه يظل هو المقدمة للنهار والجانب الجالب للنور المؤيد لأفول الظلام، والداعى للنهوض، يا عابد استيقظ، فالصلاة خير من النوم، يا عامل قم ليرى الله عملك ورسوله المؤمنون ويا عاشق انتبه فليل الأحلام قد ولى والعشاق ينتظرون الفجر بشغف ليتجدد الأمل فهذا يوم جديد أضيف إلى العمر، الحب حبنا مستمر، مستمر، مستمر . إنه الخلود الأبدى، وما أروع خلود المشاعر وكأننا قد اكتسبنا شيئًا من روح الجنة، ولذا فأنا حينما أناديك يا جنتى فإننى أضفى معنى الخلود على ندائى . . ومعنى الخلود عليك . . ومعنى الخلود على حبنا .

هذا هو لسان حال العشاق عند الفجر، وفجر العيد هو العيد، عيد قبل العيد، إنه ترقب الفرحة الكبرى، وترقب الفرحة فرحة، وتوقع السرور سرور، والاشتياق إلى اللقاء أهم ويا لغرابة الإنسان؟! الأمل عنده أهم من التحقق، وترقب الشىء أهم من وقوعه، والمعنى أهم من المادة، والحب أهم من الجنس، والذكرى أهم من الحدث .

ويا لغرابة الإنسان وهو يتمنى مرور الوقت بسرعة، وذلك حين يأمل ويحلم ويترقب ويشتاق رغم أن مرور الوقت يخصم من

عمره، كل دقيقة إلى الأمام تنقص دقيقة من المتبقى، ولكن العمر عند العشاق لا يحسب بالساعات، العمر الحقيقى عند العشاق هو لحظات الشوق، لحظات الانتظار للقاء، إنه ألم الحنين، إنه اللحظة التى تسبق اللقاء وليست اللحظةذاتها أو اللحظة التى تليها. اللحظة التى تسبق اللقاء هى لحظة النشوة الكبرى، لحظة الهزة العنيفة، لحظة اليقظة التامة لكل الجوارح، ولحظة الاستثارة القصوى لكل الخلايا، ولحظة اللذة الفائقة للروح والجسد. إنها اللحظات الفاصلة بين الألم وزوال الألم، بين الظلام والنور، وذلك كله يتجسد فى معنى الفجر، فالفجر هو اللحظات الفاصلة، وآه لو اتفق كل العشاق على أن يلتقوا عند الفجر، إن فى ذلك تحقيقًا للمعنى كله!

النهار يكشف الأسرار ويفضح العشاق ويعرضهم لحسد المحرومين، ولذا فالأولى بهم أن يمضى كل منهم إلى حال سبيله على أمل لقاء آخر عند الفجر القادم. وما أتعس أن يخلف عاشق وعده أو أن يؤجل موعده، وما أصعب أن يكون الأجل غير مسمى. هنا تشتعل النيران وتئن القلوب وتكتئب النفوس وتتعذب الأرواح. الاكتئاب هو بُعد الحبيب، هو فقد الحبيب. الاكتئاب هو ترقب فجر لا يجىء. الاكتئاب هو فشل علاقة أو انهيار بيت. الاكتئاب هو الانفصال والخصام وتبدل الحب ليصبح عداوة. وما كان حقيقيّاً لا يموت ويصبح الانفصال مؤقتًا والعداوة سطحية وتظل النيات حسنة تمنع الإنسان من القسوة البالغة، تحُدُّ من التمادى، توقف الظلم، ترقق القلب، تهذب النفس، تنقى

الروح. ما أروع الحب، وما أروع الفجر.. الحب والفجر شيء واحد، فكل منهما فى طياته الأمل والرحمة، ولا يرحم إلا من كان فى قلبه حب ولا يحب إلا من كان فى قلبه رحمة، الحب يلد رحمة، والرحمة تلد حباً.

والقصة بدأت منذ سبعة وعشرين عامًا بالتمام والكمال، قصة عادية مثل كل قصص الحب حين يلتقى قلبان أهم ما يتسمان به هو العذرية، وعذرية قلب معناه أنه لم يسكنه حب من قبل، فإذا التقت القلوب العذراء على الحب يكون ذلك هو الحب الأول، وهو حب ذو صبغة لا يمكن التخلص منها أو نزعها، صبغة لا تمحى حتى وإن جاء بعده مائة حب، الحب الأول كالفجر الأول فى عمر الإنسان. إنه الشعاع الأول هو الاشتياق وهو الألم، وهو كل أغنيات الحب وأشعار الغرام والألحان والغزل وهو آية الجمال وسحر البيان. يبدأ حلمًا ويستمر حلمًا، ولا يبقى منه بعد ذلك إلا ذكرى حلم.

كانت دون العشرين، وكان دون الخامسة والعشرين، والأمر بالنسبة للفتاة بالذات كان يبعث على الدهشة والخوف المشوب بالرغبة المبهمة وثمة أحاسيس غريبة تنتاب الجسد حين يلمسها تهرب منها وتسعى إليها وتصيبها بالدوار، وتواعدا على الزواج.. فرحت كطفلة والطفل يعيش أقصى درجات الفرح لأنه يصدق ولا يحذر، لا شيء يفسد عليه الإحساس الكامل بالفرحة. وفى اليوم الذى تحدد لذهاب الشاب ليلتقى بأسرة فتاته لخطبتها اختفى، وحين سألت عنه قيل لها إنه هاجر، ولأن كل قلب يعيش خبرة

الحب الأول هو قلب نقى برىء، فإنها تصورت أن الهجرة أمر مفاجئ ومباغت ويحدث لظروف اضطرارية تدفع الإنسان لاتخاذ قرار الهجرة فى غضون ساعات.

وانتظرت خمس سنوات كاملة، إنه أمر صعب تصديقه ولكنه حدث، وهذا يكشف عن براءة قلب ونقاء روح وسماحة عقل، خمس سنوات وهى تتوقع أنه سيأتى فجأة مثلما غادر فجأة، وكرست صديقة خبيرة جزءًا كبيرًا من وقتها لتشرح لها ما حدث، وبدلاً من التأرجح بين التصديق وعدم التصديق فإنها أصيبت بالاكتئاب ليس لفقد الحبيب ولكن لغلطة القلب وسوء القصد، ويستغرق الأمر عامين لتبرأ ثم تتزوج بقلب بارد ولكنه لا يعرف إلا الإخلاص، وبعد عشرين عامًا من زواج هادئ تحت مظلة الإخلاص والاحترام مات الزوج وترك لها فتاة فى الثامنة عشرة تشبهها تمامًا وابنًا فى السادسة عشرة شابه أباه شكلاً وسلوكًا!

ورغم أن واقع الأحداث فى الحياة العادية أصدق من واقع الأحداث فى الأعمال الروائية، فإن الحبكة الدرامية لا تمثل ضرورة لنصدق ما يحدث فى واقع الحياة، إلا أن هذا لا يمنعنا من أن نشهق ونقول هذا أمر يفوق الخيال، وإذا قرأناه فى رواية فإنها رواية ساذجة غير منطقية، وهذا هو ما حدث بالنسبة للقصة الواقعية التى نحن بصددها!

هبت لتصلى صباح الأحد، فإذا الجالس بجوارها هو صاحب الهجرة المفاجئة، لمحته قبل أن يلمحها توقف قلبها للحظات، ثم

عاد ليعمل بصعوبة، فكرت أن تفر هاربة ولكن تفر من ماذا؟ ممن؟ هل تخشى أن تنكأ الجراح؟ هل تخشى أن تفتح صفحة جديدة؟ هل تخشى ضعفًا معينًا خبرته فى هذه اللحظة نفسها؟ وهل هو ضعف كامن منذ أن رحل وداهمها الآن؟ هل تخشى ألا يتعرف عليها؟ هل تخشى أن يقابلها ببرود ولا يحفل بها؟

حاصرتها كل هذه التساؤلات، وكان من المنطقى أن تهرب ولكن قدميها لم تتحركا، نعم لقد أصيبت بما يشبه الشلل الهستيرى المؤقت. وبهدوء شديد يكشف عن برود فى الطباع أو يكشف عن عدم دهشة لأمر تم ترتيبه عن عمد، التفت إليها وابتسم ثم استمر فى الصلاة.

داهمها طوفان الأسئلة مرة أخرى، إذن هو يعرف بوجودها بجواره قبل هذه اللحظة!! إذن هو رتب للأمر!! إذن هو يسعى خلفها ماذا يريد منها كيف ظهر فجأة؟ هل انتهت هجرته فجأة مثلما بدأت فجأة؟ لماذا عاد؟.. وماذا يريد؟ هل يقصدها؟ وبعد انتهاء الصلاة رجاها فى لقاء فى الغد حدد موعداً ومكانًا. وفى الحقيقة لم يكن رجاء بقدر ما كان تحديداً نهائيّاً من طرف واحد لا يتوقع أى اعتراض من الطرف الآخر. ولم تنم ليلتها، سهرت إلى ما بعد الفجر، كانت شغوفًا بمعايشة فجر هذا اليوم، أن تعيش هذه اللحظات الفاصلة لأنها لا تعنى إلا شيئًا واحدًا، وهو الأمل الواعد بالسرور.. أى أمل؟! وأى سرور؟! ماذا أريد وماذا أتوقع؟!

قالت لنفسها بصوت لا يسمعه إلا عقلها الباطن: ليس ، مهماً ماذا أريد وماذا أتوقع، المهم عندى هو اللقاء ذاته، بل الوعد ذاته، الانتظارو الشغف، رق الحبيب أخيراً بعد سبعة وعشرين عامًا، ثم جاء هذا اللقاء متأخرًا، أريد أن أسبق عمرى، أريد أن أرى الغد، أريد أن تطلع علىَّ شمس النهار والفجر ما زال قائمًا إننى فى العشرين ولست قرب الخمسين، إننى أحب، إننى أتلهف للقاء الحبيب، ومضى الليل بطيئًا وأيضًا أبطأ ليل مر عليها.

طلع الصباح بنوره فنهضت تفيض حيوية ونشاطًا، استعادت كل الأغنيات التى صاحبت الأيام الحلوة، تزينت، تعطرت، لم تشأ أن تخبر أحدًا ربما خوفًا من حسد، تصادمت عشرات المعانى فى صورة كلمات تتعاقب بسرعة دوران شريط السينما حتى تبدو الصور حية وناطقة ومتماسكة، الحب الأول، النشوة، الأمل، الفجر، القبلات، الأحضان، الارتعاشات الجنسية، الوعد بالزواج، زيارة الأسرة، والهجرة المفاجئة، الدهشة، الانتظار، الحزن، اليأس، الزواج، الأولاد، الترمل، الوحدة!

سقطت بعض الكلمات عن عمد مثل.. الخيانة، الغدر، الكذب، الخداع.. لم تشأ أن تفسد فرحة اللقاء!

وفى اللحظات الأولى من اللقاء اعترف بخطئه، اعتذر، رجاها أن تسامحه، بكى ثم أخبرها بترمله وعودته النهائية إلى الوطن، أكد لها أنه لم ينسها لحظة!... ما زلت أحبك لماذا لا نتزوج؟ طرح

السؤال أو الاقتراح بكلمات سريعة مضغومة سقطت بعض حروفها ربما خوفًا من إجابة لا ترضيه. انتهى اللقاء بقبلة على جبينها أسهدتها ليلتين!

اللقاء الثانى كان أكثر مرحًا وأقل قلقًا وأمعن فى التذكر والاسترجاع لبعث الحماس فى الحاضر وشحن المستقبل بالأمل، وانتهى اللقاء بقبلة على الشفاه طالت قليلاً إلى الحد الذى استحثت فيه بعض الخلايا لتصحو من جديد!

وفى اللقاء الثالث تم الاتفاق النهائى على الزواج، تحديد الزمان والمكان والترتيبات..

عادت إلى البيت بمزاج مختلف، استعادت كل دقائق يوم أن ضرب موعدًا وأخلفه، اجتاحتها كل مشاعر الألم حين لم يفض الليل إلى فجر ولم يطلع نهار!

سألت دموعها، بكت بكت كما لم تبك من قبل، بل انتحبت، علا صوتها..

حزمت حقائبها، رحلت من المدينة إلى حيث لا يعرفها أحد!

لم يصدق هو أنها أخلفت الموعد، وفشلت بعد ذلك كل محاولاته للاتصال بها، فنسى!

●●●

أمى.. شقيقتى.. صديقتى

لا تقوم لى شعرة واحدة وأنا أكذب ولا يختلج لدى جفن. أما قلبى فينعم بهدوء شديد وكأنه مغلف بأغلظ الحجارة التى تمنعه من الإحساس بأى شىء، ويشارك صوتى في معزوفة الكذب فيتهدج تبعًا لمقتضيات المعنى ليتأثر سامعى ويقتنع بكل ما أردت زرعه داخل عقله من مغالطات! . . كانت هذه هى براعتى ولا أملك غيرها، براعة إحداث تأثير عاطفى يمهد لتصديق ما أقول . .

كنت أصل إلى كل أهدافى عن هذا الطريق . . وكنت أجيد فن الحكاية وأهم ما فيها التشويق والإبهار، وكنت أستطيع أن أمسك بقلب وعقل سامعى معًا، مثلما كانت تفعل شهر زاد، وربما كانت تفعل شهر زاد أبرعُ كاذبة فى التاريخ مثلما أكون أنا فى الوقت الحاضر . . وحاولت أن أفهم سر ولعى بالكذب، ومن غير عناء أدركت ما كان يمتعنى هو أن أرى سامعى مخدوعًا بينما هو فى غاية التأثر من شدة التصديق، كان ذلك يثير لدى نشوة كبرى!

وكان ضحاياى من الرجال دائمًا، أقنع الرجل منهم بأننى أحبه حب عبادة لأنه أعظم رجل فى العالم . . كنت أجعل الرجل يشعر بأنه ملك متوج ليس من قبله ولا من بعده . . إنه أسطورة عصره . . كان الرجل يتهاوى أمامى مثل تهاوى الأوراق الصفراء الجافة من شجرة. كان يقع فى غرامى لا لميزة أحظى بها ولكن لأننى سحرت

لبـه . لأننى نفـذت إليـه من نقطة ضـعف أى رجل وهى احـتيـاجـه الشديد لأن تمدحه امرأة وتعجب به وتحبه لأنه أفضل رجال العالم . عقدة أى رجل هى إحساسه بالنقص أمام أى رجل آخر !

وأى رجل عنده عقـدة نقص لأن هناك دائمًا رجلاً آخـر يفضله فى صغر سنه أو جماله أو قوة عضلاته أو كثرة ماله أو مكانته أو عبقريته ، أو هذا هو المهم أو أهم من الأهم فى القدرة الجنسية ! . . ويظن الرجل واهمًا أنه إذا امتلك هذه القدرة باقتدار مطلق ، فإن المرأة أى امرأة ستخضع له خضوع العبيد وتتشبث به بأطراف جلبابه وتتمرغ فى التراب الذى تطؤه نعلاه .

أمـا الشىء الآخـر الذى يجـعل الرجل يفـقد عـقله هو أن تمطره المرأة بالهـدايا . . إن ذلك أقـوى من امـتنان امـرأة لهـدايا الرجل إليها . . أن تهدى المرأة الرجل فهذا معناه أنها تستميت لإرضائه لتظفر به دون غيرها من نساء الأرض واللاتى يسعين لإرضائه أيضًا ولكنها هى التى تنتصر فى النهاية ! . . وبذلك يشعر الرجل أنه محط نزاع النساء اللاتى مزقتهن الغيرة . هكذا استطعت أن أسيطر سيطرة كـاملة على أهم ثلاثة رجال فى حيـاتى . . ولم أعـرف غيـر هؤلاء الرجـال الثـلاثة لأننى بطبـعى لا أميل إلى الرجـال ، ربما لأن هذه الرغـبة الطبيـعيـة للجنس الآخر مـاتت عندى منذ وقت مـبكر من حياتى . وهذا يعنى أننى لم أسع إلى هؤلاء الرجال الثلاثة لأغراض عاطفـيـة أو جنسيـة ، وإنما لعلاج جرح غائر ولإطفاء نار مشـتعلة ولشفـاء مرض عضـال . لـم أعرفهم لأنهـم رجال يهـموننى ولكن

عرفتهم لأنهم كانوا يهمون ثلاث نساء أخريات . . وهكذا أقترب بالقارئ من المساحات غير المرئية من نفسى والتى لا يستطيع أحد أن يراها لشدة إظلامها . . لم يكن الرجل هو الذى يعنينى وإنما امرأته . وذلك من أجل أن أحطمها مثلما حطمتنى فى يوم من الأيام، كل واحدة من الثلاث حطمتنى بطريقتها وفى اتجاه ما سواء إذا كانت تقصد أم لم تكن تقصد!

وفى الحقيقة أنا غير مقتنعة بمسألة القصد والنية . وهذه أمور تخص الإله وحده . أما أنا كإنسانة ضعيفة فيهمنى فى النهاية الأثر الدامى للفعل . . ماذا تنفعنى النيات الحسنة بعد أن يتم ذبحى؟!

الأعمال بالنيات فى التعامل مع الله . أما الأعمال فبآثارها فى التعامل ما بين البشر، والنساء الثلاث قمن بذبحى ثلاث مرات حتى أجهزن علىَّ تمامًا فصرت حطامًا لامرأة . . صرت مشوهة العقل مدمرة الوجدان . صرت ككرة النار التى تحرق كل ما فى طريقها وهى تنحدر إلى أسفل، أو كبركان تم تعبئته حتى فاض فانفلت دون رادع . . تحول الإنسان إلى شيطان . . الإنسان فى أصله خير . أما الشيطان ففى أصله شر . . والسؤال هنا : هل تم التحول بفعل الأحداث الجسام التى مرت بى أم أنا التى قررت التحول إلى الشيطان لأدمر وأحطم ولأضرب فيشقى الذين يقعون فى دائرة ضرباتى الموجعة؟! . . هل التحول من الخير إلى الشر تلقائى أم إرادى؟ هل فى استطاعة إنسان أن يتخذ قرارًا بأن يكون إنسانًا أو شيطانًا؟!

أقـول الحق: إن القـرار قـرارى. إننى صـاحـبـة إرادة فى هذا التحول.. وهكذا كل إنسان إذا أراد أن يكون شيطانًا سيكون لينفذ مهمة لا يستطيع أن يقوم بها إلا شيطان.. إنه شيطان بإرادته.. ولا أتصور إنسانًا يولد شيطانًا.. أما الشياطين غير الإنسية فيخلقها الله لغواية الإنسان.. أما الشياطين الإنسية فهى تحولات تحدث داخل النفس البشرية حين تتألم بفعل إنسان آخر.

ألم شديد.. ألم يعصر.. ألم لا يصدر إلا عن ذبح أى إزهاق الروح ذاتها.. فكيف نطلب من إنسان أن يكون إنسانًا فى ظل هذا الهول.. لابد من مسحة شر تدخل نفسه ليؤلم كما تألم.. ليجرح كما جرح.. ليذبح كما ذبح. لا تخف حدة آلام أصابت إنسانًا بفعل آخر إلا بإحداث ألم مقابل مساو له فى القوة ومضاد له فى الاتجاه. إنه قانون يحكم الطبيعة مثلما يحكم الإنسان، لكل فعل رد فعل، ولا يهمنا أن يكون الفعل الأول بقصد أو من غير قصد.

هكذا وجـدت الشـر يمـلأ نفـسى ضـد أمى وشـقـيـقـتى وأعـز صديقاتى.. النساء الثلاث اللاتى دمرن حياتى.

أمى

امرأة تفيض حنانًا ناحية زوجها يفوق حنانها ناحية ابنتها الوحيدة، ولذا فهى نوع مختلف من النساء.. أحبت أبى أكثر مما أحبتنى، لا أقول إنها لم تكن تحبنى ولا تشغلنى كثيرًا -بشكل مجرد- درجة حبها لأبى، ولكن المشكلة فى أنهـا لم تتـرك لى ولا نـافـذة واحـدة أطل من

خلالها على قلب أبى وعواطفه. لقد أغرقت الرجل بحيث لم يكن فى حاجة إلى عواطف أخرى حتى عواطف ابنته.. كنت كالغريب بينهما.. ما أصعب أن تكون غريبًا فى بيتك.. ما أصعب أن تشعر بأن أمك تحبك أقل.. ما أسوأ ألا يحتاج أبوك إلى حبك.. والأسوأ ألا يتاح لك التعبير عن عواطفك فتختزنها حتى تصبح عبئًا يثقل كاهلك.. فى ظل هذا الجو تشعر بالاختناق، وكأنك على وشك الموت.. أو أنك تموت فى كل يوم من جديد!

ومات أبى.. لم أحزن لموته، وشعرت بالشماتة تجاه أمى، ولأنها كانت صغيرة وجميلة وكانت عاشقة للحب، ولا يمكن أن تعيش دون أن تحب وأن تحب فإنها تزوجت بعد بضع سنوات.. كان رجلاً فى مثل عمرها متزنًا ملتزمًا عاملنى باحترام كابنته ولم يصدر عنه فى أى لحظة ما قد يساء ظنه.. ربما عن خلق حميد منه.. وربما لأنى لم أكن أحظى بأى جمال أو أنوثة. وتعلقت أمى به تعلقًا شديدًا.. وفى هذه المرة لم يكن من حقى الدخول فى منافسة معها أو الشعور بالغيرة فهو لم يكن أبى.. ولا يحق لى أن أتوقع حبّاً أبويّاً منه، ولا يحق له أن يتوقع منى أية مشاعر إيجابية، بل العكس فقد لا يستغرب أن أحمل له بعض المشاعر السلبية لأنه حل محل أبى.

واغتظت لهذا الوضع الجديد والذى لم يتح لى أى حقوق مثلما كانت الحال القديمة.. ونبتت أول نبتة شر داخلى أو أنا التى زرعتها.. فلأحرم أمى من حب هذا الرجل ولأجذبه ناحيتى..

وهدانى شرى إلى تلمس منفذ واه قد أستطيع التسرب منه وهو أن أحدث هذا الرجل عن نفسه . . تدريجيّاً جعلته يصدق أنه أحكم الرجال وأعقلهم . . وأنه مع ذلك يبدو شابّاً وجميلاً، وأنه جدير بحب الفاتنات من الصغيرات . . وأخذت أحكى له قصصًا وهمية كاذبة عن فتيات صغيرات من صديقاتى تعلقن برجال فى مثل سنه . . استجاب لى . . فعرفت أن نقطة ضعفه الأساسية هى جزعه من تقدم عمره . . فضربت برقة ونعومة على هذا الوتر الحساس!

وكان لابد أن أتقدم نحو الخطوة الأخيرة وهى أن أخضعه جنسيّاً . . ولكننى معطلة من قوة التأثير الجنسى . . لم أكن أملك غير لسانى وروحى . . فحركتهما بحكايات مثيرة ألهبت عقله فتهاوى قناع الحكمة وتزلزل الوجدان المتزن وخار الجسد المتماسك فسقط الرجل سقطة مدوية! . . وهنا شعرت بأننى انتزعت سكينًا من تلك التى غرست فى صدرى وأعدت غرسها فى صدر أمى!

وكان لابد من ذبحها فدبرت موقفًا جعلت من يشاهده يتصور أن الرجل يحاول اغتصابى، فطلقته وعاشت منطوية على أحزانها تنزف دمًا من روحها المذبوحة . . وأى امرأة من الممكن أن تتعرض لهذا الموقف . قد تسامح . إلا أن هول الموقف كان من ابنتها، ولذا فالذبح الحقيقى تم على يد ابنتها وليس على يد الرجل الذى خانها . . لقد انتصرت الابنة!

شقيقتى

من الطبيعى أن تكون هناك فتاة جميلة وأن تكون شقيقتها أقل جمالاً. ولكن المزعج أن تكون إحداهما فائقة الجمال والأخرى فائقة الدمامة. كان الجميع يشهقون لرؤية شقيقتى ويشيحون عند رؤيتى. أدركت ذلك منذ طفولتى المبكرة فكرهت الناس أكثر مما كرهت شقيقتى. إنه الظلم بل عدم الإنسانية لدى معظم الناس بل كل الناس.. هكذا الناس.. جريمة شقيقتى لم تكن بسبب جمالها ولكن لأنها جعلتنى أكره الناس وأرى طبيعة البشرية كأسوأ ما تكون.. كانت متفائلة وكنت متشائمة.. كانت حسنة النية وكنت سيئة النية، كانت ترى البشر أخياراً وكنت أراهم أشراراً.. لقد تلوثت روحى بسبب الشر.. وكان أسوأ الناس هم الرجال الذين يتساقطون على قدمى شقيقتى بلا كرامة يتملكهم سعار ليس جنسياً بقدر ما هو فنى، كانت شقيقتى أجمل لوحة من الممكن أن تقع عليها عين إنسان. وقبلت شقيقتى خطبة فنان رأى فيها أنها تمثل أقصى درجات الجمال المطلق، والذى من الممكن أن يتجسد إما فى الطبيعة الربانية وإما على يد فنان مقتدر.. وهذا هو الذى ذبحنى حقيقة.. إلا أن شقيقتى كانت تملك قدراً من التعالى جعلها شحيحة فى الإعجاب بأعمال زوجها الفنية.. ولاح لى المنفذ!

قرأت كثيراً حتى يكون لآرائى وزن.. كلمته عن فنه وعن فن الآخرين، أتقنت فن الكذب، وتذكرت قولاً عن أن أعذب الشعر أكذبه.. فقلت له إنه أعظم فنان فى العالم، بل هو ملهم من السماء

مباشرة . . واستسلم كطفل لكلماتى وانتفخ سروراً وامتلأ اعتداداً بنفسه وعزفت نفسه ألحانًا راقصة جعلته يمشى زهواً ويتحرك اختيالاً!

وكان لابد من الخطوة الأخيرة لكى يسقط، وكيف لى أن أسقط فنانًا هو أقرب للرومانسية وبعيد عن حيوانية الجسد . . وتفتق عقلى أن أربط له ما بين إبداعاته الفنية وبين العشق الجسدى . وأن فى الجنس جمالاً يكشف عن رغبة عارمة للأرواح لكى تتلاصق . . وحاول أن يلصق روحه بروحى التى ادعت تشوقها له، أعقبها سقوط حين التصقت الأجساد!

ودبرت موقفًا جعلت من يراه يظن أنها محاولة اغتصاب! طلقته شقيقتى وعاشت وحيدة تجتر أحزانها، لم يكن ألمها الأعظم بسبب خيانته، فهذا أمر معروف عن الرجال، ولكن لأن ذلك كان مع شقيقتها! وهكذا انتزعت السكين الثانية من روحى وغرستها فى روح شقيقتى!

صديقتى

قد تمتلك المرأة جمالاً يأسر القلوب، وقد تمتلك أنوثة تهز الأبدان، ولكن تظل الروح المرحة البسيطة المتوثبة الذكية المنطلقة هى التى تفرض عبيرها على كل كيان الرجل فتمتلكه، شىء ما يشع من داخل المرأة يمسك بتلابيب روح الرجل فلا يملك الابتعاد عن هذه المرأة . . إنها المرأة التى تتمتع بعذوبة خاصة وليس جمالاً

خاصّاً وأنوثة خاصة . . إنه سر المرأة . إنه سر الربط الفورى بين قلبى رجل وامرأة . . هكذا كانت صديقتى . . وكنت أشعر بأننى ألهث من خلفها وكأنها كانت تجرى وكنت أحاول اللحاق بها . كانت متقدمة عنى كثيراً، كانت المسافة بيننا شاسعة، ربما آلاف الكيلو مترات . . أين أنا منها؟! . . وأينما كنا معًا كانت كل أرواح الرجال تحوم من حولها بينما لا يرانى أحد، كانت تسحق وجودى سحقًا، لقد محتنى هذه الصديقة . . لم يكن ذنبها ولم يكن ذنبى، ولم يكن مبرراً لى لأسامحها . . أنا لا أحاسب الناس على نياتهم ولكن أحاسبهم بما تركوه من أثر على حياتى سواء بقصد أم بدون قصد . . أنا لست من الآلهة، أنا إنسانة عادية حُرمت من جمال الروح . وتزوجت صديقتى من رجل أعمال لعله تصور أنها ستملأ حياته بالحركة والتدفق والحيوية مما يتيح له نجاحًا أكبر فى أعماله .

وربما لأنها كانت تشعر بانعدام إمكاناتى فى المنافسة فقد قربتنى من حياتها كثيراً . . ومن خلال ذلك عرفت نقطة ضعف هذا الرجل وهى أنه يرى أن التقدير المادى خير تعبير عن الإعجاب الشخصى . . وتعمدت إهداءه سراً أثمن الهدايا التى كلفتنى كثيراً، ولكن كله يهون فى سبيل انتزاع السكين الثالثة . . ومسألة إعطائه الهدية سراً كان لها طعم خاص، إذ كانت تحمل معانى خفية بالإعجاب الشخصى ومحاولة مد جسور غير مرئية تحقق مزيداً من الاقتراب والتقارب . كان يطير فى السماء مع كل هدية . . وأصاحب ذلك بامتداحى لذكائه وعبقريته . . ورغم محدودية

قدراته العقلية فإنه صدق أنه أذكى رجل فى العالم! . . وكان لابد من الخطوة الأخيرة المحتدمة ليسقط ثم تسقط هى من بعده وتنتهى علاقتهما، فدبرت موقف اغتصاب فطلقته . .

وقالت ضمن ما قالت لو أنه أنشأ علاقة مع امرأة أخرى غير صديقتها لغفرت له، أما أن يتدنى لمحاولة علاقة مع صديقتى فمن المستحيل أن أستمر معه . . كانت نشوتى الحقيقية ليس خراب بيت صديقتى، ولكن لأن هذه المصيبة حطت عليها بفعل يدى . أنا التى فعلتها مثلما فعلتها مع أمى وشقيقتى، أنا الشر، أنا الشيطانة، أنا القوة التى لا تقهر، أنا التى أذلت الرجال وأركعتهم، وأنا التى أحرقت قلوب النساء اللاتى قضين بإعدامى!

ولكن ماذا بعد؟ ربما لا شىء . .

وماذا سيكون موقفك من الرجال؟

ربما أحاول أن أحسن من نفسى لكى يعجب بى رجل بحق بعد تطهرى من شرورى بالرغم من أننى لا أميل حقّاً إلى الرجال، ربما لأنه تم الإجهاز علىَّ مبكرًا . . !

●●●

بكارة الإحساس

الأعاصير لا تهزم الجبال بل تتكسر على جنباتها وتتشتت مرتدة بالخيبة، وبعض الرجال كالجبال لا تهزهم المحن، بل تشد من أزرهم وتزيدهم قوة وصلابة، ولا ينحنون جزعا ولا يتراجعون خوفًا، ولا يبكون ألما، وإنما يواجهون ويعقلون ويتدبرون ويقدرون، وبعد القرار يأتى الفعل من نبع الحكمة، هكذا بعض الرجال، رجال كالجبال، الجبال ذات الأوتاد الراسخة فى الأرض، ولم نسمع عن جبل انهار أمام إعصار، إلا أننا سمعنا عن رجل دكته مشكلة رغم أننا كنا نظنه جبلاً أو هو كان كالجبل فعلاً، هذا هو الاستثناء فبعض المشكلات كالأهوال لا قبل للإنسان بتحملها مهما كان قوياً، مهما كان جبلاً، جبلاً حقيقياً وليس كجبال رمال الشاطئ التى تسقطها نفخة هواء من فم طفل. إذن المشكلة فى طبيعة المشكلة ذاتها، ويا لعجب قانون النسبية حيث يقاوم الرجل كالجبال إعصاراً ولا يستطيع أن يقاوم مشكلة، مشكلة ذات طبيعة خاصة، مشكلة تذبح كالسكين، مشكلة كالمعول الذى يكسر الجبل قطعة قطعة مهماً كانت صلابته. والقصة نستطيع أن نسردها فى بضعة سطور قليلة، وأما ما اعتمل فى النفوس وقوض الظهور وجرح القلوب وأبكى العيون وضيق الصدور وكسر الكبرياء، فإنه يحتاج إلى مداد بحرين وليس بحراً واحداً.

والقصة أن شاباً فاضلاً بكراً تزوج من فتاة فاضلة بكر، ومضى ثلاثون عاما ظلت المودة والرحمة عليهما، حَجًّا واعتمرا عشرات المرات، آنست الصلاة ليليهما، وشرحت كلمات الله صدريهما وهما يستقبلان كل فجر، أصبح لهما من الأبناء والبنات أربعة وضعف هذا العدد من الأحفاد، وداهمهما إعصار مفاجئ وكأن الزمن أراد أن يريهما الوجه الآخر كفاهما ثلاثون سنة سعادة دون أى كدر، فأصيبت الزوجة بمرض الاكتئاب، وفى الاكتئاب تجتاح المريض مشاعر الذنب والإثم والندم ويعترف بأخطاء أو جرائم ربما لم يقترف بعضها ويبالغ فى البعض الآخر، اعترفت الزوجة المريضة لزوجها بأنها تعرضت لبعض المداعبات الجنسية السطحية من خطيبها الأول الذى لم يشأ الله أن تستمر معه، وأنها استغفرت وجاءته طاهرة وعاشت معه على الطهر والعفاف حتى هذه اللحظة، وحين بلغ بها الاكتئاب مداه حاولت الانتحار تكفيراً عن ذنبها فأسرع الطبيب بالعلاج الكهربائى وشفيت سريعًا بحمد الله ونسيت اعترافاتها لزوجها، فالأمر بحق كان بسيطًا وتافهًا ولا يزيد على أى ملامسات تحدث بين خطيبين.

ولكن الزوج لم ينس، ومن هنا تبدأ القصة التى تحكى عن الأعاصير التى اجتاحت هذا الرجل، وهو رجل ليس ككل الرجال، رجل صلب حكيم حليم مؤمن مثابر كريم متسامح، وعدِّد ما شئت من الصفات النبيلة والسمات الحميدة التى من الممكن أن تصف بها رجلاً لتصل به إلى حد الكمال حتى تقف عند نقطة وتقول إن الكمال لله وحده!

إذن لابد من أن تكون هناك نقطة ضـعف فى منطقـة مـا إلى مصاف البشر حتى ولو كان أفضلهم، نقطة ضعف أو بؤرة حساسة أو عيب خلقى أو مكتسب، هكذا تستطيع أن تسقط أى إنسان مهما كان أقوى الأقوياء، وهى أن تنفذ إليه من نقطة ضعفه.

ونقطة ضعف هذا الرجل أنه كان يحب زوجته حبّاً جارفًا ما وهن لحظة منذ زواجهما، وأهم شىء كان يحبها من أجله هو طهارتها وبراءتها، هو بكارتها بمعنى أنه لم يخطر على بالها ظل رجل، لم تنفعل بإنسان غيره، ألبوم صورها لا تحتله إلا صورة رجل واحد هو ذاته، نقية كهواء الجنة، عفيفة كأى من أمهات المؤمنين، طاهرة شريفة، بكر كطلعة النهار الأول على هذه الدنيا، لم يلمسها بشر غيره، لم يحرك غرائزها إنسان سواه، إنه الأول الأول الأول، وليس من قبله أو من بعده، وكان الخيال يجنح به فى أحوال كثيرة فيظنها مَلَكًا من السماء أتت خصيصًا لتتزوجه لأنه رجل ليس ككل الرجال، رجل بكر مثلها، لم يعرف امرأة، لم تتحرك غرائزه تجاه امرأة قبلها، بل لم يعبر ظل امرأة خياله قط. رآها لأول مرة فأكبرها فأحبها فتزوجها فصانته وصانها، كان فخورًا ببكارته وكان يعتبر نفسه أكثر الناس حظّاً لبكارتها.

بكارة الانفعال والإحساس وحتى بكارة الخيال، وكان أكثر ما يمتعه فى حياته مع زوجته هو تلك الأحاسيس العذبة بالطمأنينة التى كانت تشغل كل كيانه، ولذا كان ينام نومًا لذيذًا وعميقًا، وما استيقظ يومًا إلا منتعشًا يفيض بالحيوية والنشاط محبّاً للحياة إلى

حد الولع، كان سعيدًا حقّاً، وكان يدرك أن المصدر الحقيقى لسعادته هو نقاء زوجته، وكانت متعته معها فى الفراش لا تدانيها متعة، إذ لم تكن جنسًا خالصًا إنما كانت أيضًا عاطفة فياضة.

بل كان الموقف فى حد ذاته يبهجه، أى فكرة أنه يمارس الحب مع زوجته، الفكرة فى حد ذاتها لا تقل متعة عن الممارسة، والفكرة بمعنى المعنى، أى أنهما معًا، وكانت فكرة الطهارة أكثر ما تسيطر عليه فى هذه اللحظات بل أصلاًهى فكرة البكارة التى انبثقت منها الطهارة، وكأنما كان يسعد فى كل مرة حتى بعد ثلاثين عامًا من الزواج أنه الأول والأخير، أى أن هذه المرأة لم تنفعل برجل غيره، إن هذه الشريفة العفيفة لم يلمسها رجل غيره، ولهذا كان لعلاقته الجنسية بها مذاق خاص. ولا نملك أن نعلق على أفكار هذا الرجل أو ننتقد مشاعره، فهكذا صيغ عقله، هكذا تشكلت مفاهيمه ولا ندرى من أى منبع!

بالقطع لم يكن الدين فقط هو المنبع الوحيد، وبالقطع لم تكن الأفكار السائدة فى مجتمعه الصغير الذى نشأ فيه والتى تؤكد على أهمية الشرف والطهارة وحيث كان مفهوم البكارة يؤخذ فقط بالمعنى المادى وخاصة لدى الفتاة، وكانت طقوس ليلة الزفاف تدور كلها حول إثبات هذه البكارة المادية الدموية. أما بكارة الرجل فلم تكن أبدًا ذات بال، ربما لأنه لم يكن هناك شىء يثبتها مثلما هى الحال لدى الفتاة، إذن من أين جاءت مفاهيم ومعتقدات هذا الرجل عن بكارة الإحساس؟! كيف ترسخ فى وجدانه العشق المتناهى

لبكارة الانفعال الجنسى حتى تصبح المرأة التى تمس لأول مرة ليلة زفافها، وكأنها أميرة الأميرات، بل الملكة المتوجة؟!

إننا لا نستطيع أن نجيب بالتحديد عن مثل هذه الأسئلة المتعلقة باستقصاء المنبع للأفكار والمشاعر وبالذات عند هذا الرجل، لأن هذا قد يكون مغروسًا فى الأغوار البعيدة للنفس أو الثنايا التى لا ترى فى العقل الباطن؛ إذ هو ذاته ربما لا يدرى شيئًا عن منابع وروافد أفكاره وعواطفه.

وربما أقول لمجرد الاجتهاد إن الأمر لا يتعلق عنده أساسًا بالبكارة بقدر ما يتعلق بإحساسه بذاته، بثقته بنفسه بقدرته على تحمل المنافسة أو بأن يكون محل مقارنة مع رجل آخر، إذن ربما يكون هذا الرجل لديه مشكلة مع الرجال الآخرين، وهذا بلا شك يجرنا إلى عقدة أوديب حيث يدخل الطفل فى صراع مع أبيه ليفوز بأمه، إلا أن الأب ينتصر فى الاستحواذ على الأم فيعانى الطفل الإحباط والإحساس بالعجز، ويصبح أى رجل آخر مثل أبيه أى مصدرًا للخطر، خطر الفوز بالأم أو بمعنى آخر الزوجة، وينشأ الصراع، صراع على مستوى العقل الباطن، وتنشأ مشاكل الغيرة والشك والشذوذ، إلا أن هذا كله يتعلق بالمستقبل. أما فى حالة صاحبنا بطل قصتنا فإن الأمر يتعلق بالماضى، ربما لأن الاطمئنان للماضى يجعلنا نثق بالمستقبل.

لكن لماذا نحاول أن نجد تفسيرًا مرضيًا لكل ظاهرة إنسانية؟ لماذا لا نقول إن هذا الرجل رومانسى وخيالى وهو ذاته رجل نقى، بل

هو رجل بكر لم تلمسه امرأة ولم تحرك غرائزه امرأة، بل كانت زوجته هى الأولى فى حياته، فلماذا ننكر عليه أنه يريد أن يكون الأول فى حياة زوجته؟!

ففاجأت الزوجة زوجها بهذا الاعتراف وهى مريضة، ثم شفيت ونسيت ما قالت لأنه أمر تافه ليست له أى أهمية ولم يعلق بإحساسها ونسيته تمامًا بعد انفصالها عن خطيبها الأول، بل لا يمكن أن ندينها بأى شىء لأن قرانها كان معقودًا على هذا الرجل.

ومن الوجهة الشرعية كان زواجًا إلا أنه لم تحدث بينهما إلا هذه العلاقة الجنسية الوحيدة. إذن أين المصيبة؟ ولماذا انهار الزوج إلى هذا الحد؟!.. المصيبة هى أن هذه الزوجة جاء ضمن اعترافاتها أنها انفعلت جنسيّاً فى هذه اللحظات وبذلك تكون قد فقدت بكارتها الحسية، إحساسها لم يعد بكرًا، لقد تحرك هذا الإحساس باللذة. إذن لقد هدمت كل شىء أقام عليه مشاعره نحوها، وأقام عليه حبه لها، وأقام عليه الفرحة والفخر والتيه والزهو، وأقام عليه كل مستقبل علاقته بهذه المرأة والتى استمرت ثلاثين عامًا من السعادة الخالصة!

إذن لقد عاش الوهم، إن العائش فى الوهم غير العائش فى الحقيقة. وواجه نفسه بصراحة أكثر فقال عن حياته معها إنها لم تكن زيفًا وإنما كانت وهمًا، وهناك فرق بين الزيف والوهم، الزيف هو الغش والخداع والتضليل. أما الوهم فهو من صنع الخيال، والوهم هو رؤية غير حقيقية ولكننا نصدقها. إذن أساس

الوهم هو صدق، أنت حين تتوهم شيئًا تكون صادقًا فيما تحس وترى وتعتقد فيه بالرغم من عدم صحة ما تتوهم . . والوهم قد ينشأ من المرض أو من البراءة فقط . وعاد يسأل نفسه هل كنت مريضًا أم بريئًا؟

أصيب الزوج بالاكتئاب، امتنع عن الطعام، فقد وزنه، أهمل عمله، فقد حماسته، ولكنه أبدا لم يسئ معاملتها ولكن بتاريخها الطويل معه فهمت، وحاولت أن تشرح له الأمر من جديد . . أنا لم أخنك، إن ذلك كله حدث قبل أن ألقاك، وكان الرجل الآخر زوجًا لى، ولكنه ضغط علىَّ ومسنى، وكانت المرة الأولى والأخيرة، ومن قبله لم يلمسنى أحد، ومن بعدك لم يلمسنى أحد، ولم يخطر على بالى قط رجل فى حياتى، بل أستطيع أن أقول إنك الرجل الأول فى حياتى لأن ذلك الرجل الآخر لم أحبه . ولكن رغم إرادتى انفعلت جنسيّاً حين لامسنى لأننى بشر، أنا مصنوعة من لحم ودماء وأعصاب، هى التى استجابت وليست مشاعرى، جسدى هو الذى استجاب وليست روحى، صدقنى لقد جئتك بكرًا بمشاعرى، ربما لست بكرًا بأحاسيسى الجسدية لكن بكر بأحاسيسى المعنوية!

شُفى من اكتئابه ولكن مشاعره ناحيتها لم تبرأ، بل مشاعره نحو الحياة كلها ظلت فاترة . . فقد حماسته لكل شىء، لم يعد يقربها جنسيّاً، بل أصبح ينام فى غرفة منفصلة، ولكنه أبدًا لم يسئ

معاملتها، ظل هادئًا مسالمًا مهذبًا وكريمًا فى علاقته بها لكن قلبه توقف ومشاعره تحجرت وأحاسيسه فترت حتى الموت. وتدريجياً بدأ يستعيد حيويته ولياقته عاد إلى نشاطه وحماسته للعمل وللأصدقاء ولكل شىء فى الحياة إلا هى.. ظلت مشاعره ميتة تجاهها.

إلا أنه ظل رقيقًا ودودًا معها، إنها مودة الصديق أو الشقيق أو الأب، ولكن أبدًا ليست مودة الزوج. وتألمت هى ألمًا شديدًا، أحست بفداحة الفقد، وعاودها الاكتئاب، ولم يُجْد معها العلاج هذه المرة، وأخذت فى التدهور السريع، وذات صباح وجدها ميتة فى الفراش، وحار فى أمر موتها، هل كان انتحارًا -أى بيدها- أم بيد الله؟!

حزن حزنًا طبيعياً مثلما يحزن أى زوج على فراق زوجته التى عاشرته سنين طويلة، وتدريجياً خرج من حزنه وعاودت الحياة سيرها المعتاد!

●●●

أسطورة من جنوب الوادى

التوغل صوب الجنوب هو رحلة فى عمق التاريخ حيث العبق الذى يفوح من ثنايا سنوات تمتد إلى الوراء بضعة آلاف لتكشف عن سمات أصيلة هى صلب جوهر إنسان هذا المكان. وربما هى سمات مرتبطة بالإنسان كإنسان لا تتزحزح عن موقعها فى سياج الخلق الكريم الذى فطر الإنسان عليه. ولذا لا يختلف إنسان اليوم عن إنسان الزمن البعيد حيث ورث السلف عن الخلف جينات محملة بعقائد ومفاهيم ومشاعر وأسلوب حياة.. يكاد الأمر يكون استنساخًا من شدة نقاء العنصر حفاظًا على الأصل وضمانًا لعدم ضياع هرم القيم الذى يمثل الحصن للدفاع عن إنسان اليوم والغد وكل غد إلى يوم الدين.

وإذا شددت الرحال فأنصحك بالوصول إلى آخر بقعة مباركة من جنوب الوادى حيث السمرة الداكنة والقلب الأبيض.. وإذا حاولت أن تخترق الزمان فأنصحك بالعودة إلى الوراء عدة آلاف من السنين لتطالعك حضارة هى أهم الحضارات وتواجهك أساطير من الحكمة والبطولة والحب. ولنفترض فى رحلتك عبر الزمان والمكان أنك قابلت إنسانًا ما بنى بيتًا صغيرًا على شاطئ النهر تطل عليه مباشرة سلسلة متعاقبة من الجبال..

المسافة من حافة النهر إلى سفح الجبل لا تتجاوز عدة أمتار قليلة

زرعها الرجل طعامًا لأسرته وما تبقى يذهب به إلى السوق ليبيعه ويشترى بثمنه ملابس وعطوراً رخيصة لزوجته وحلوى لطفليه . . ورغم سطوة الدولة فى هذا الزمان فإنها تغافلت عن هذا الرجل وأمثاله ممن افترشوا أجزاء هذا الشريط الضيق وزرعوه ليعيشوا . . وبجانب الزراعة كان يقطع بعض الحجارة من باطن الجبل ويسويها فى أشكال هندسية عبقرية ويبيعها لأصحاب الحاجة . ولم يكن غريبًا أن يتميز رجل بسيط مثله فى تقطيع الحجارة فهو من سلالة حضارة اهتمت بالحجر وسجلت تاريخها عليه . . هذا الرجل نما فى حضن الحضارة إلا أنه كان عازفًا عن الاختلاط ببقية الشعب فلا يرتاد المعابد ولا يشارك فى الاحتفالات الدينية ولا يحرص على حضور موكب الملك .

عاش ليعمل وليعبد الإله . وكان على يقين من أنه إله واحد . . يقين جاءه من تأملاته وقناعته الشخصية . وبحدسه الشخصى أيضًا آمن بأن هناك حياة بعد الموت وذلك زاده خشوعًا . . كان صبوراً وقنوعًا . . يومه يبدأ مع أول شعاع شمس وينتهى بأفولها ، عمل مستمر بكده فقط ورفض أن يعمل فى المدينة ، وأن يكون من حراس الملك فالعمل فى أى مكان هو العمل . . وهو يعشق العمل . . يحب أن يكون مسئولاً . .

ثم نأتى إلى البعد الثالث فى شخصية هذا الإنسان وأى إنسان فى هذا المكان من قديم الزمان فسنجد أنه يحب أسرته حبّاً جمّاً ويحرص على تنشئة أطفاله على حب العمل وعبادة الإله

الواحد . . فهو لم يعرف الخيانة أبدًا . والمتعة الكبرى بعد متعتى العمل والعبادة هى معاشرة زوجته .

ولنتتبع يومًا فى حياة هذا الرجل فسنجده يصحو حين يتشرب الندى أول شعاع ضوء، فيهبط به إلى عينيه فتتململان فيقوم نشيطًا . . أما إذا كان محتميًا بكوخه الصغير من شدة البرد فإن أصوات طيوره توقظه عند الفجر . يتعبد ثم يأكل ثم يعمل دون توقف النهارَ بأكمله . وعند الغروب يتوقف فيتعبد مرة أخرى ويأكل ثم ينام مع زوجته .

ولنتحدث قليلاً عن زوجته فهى امرأة رائعة الجمال تجيد ببراعة فن تخطيط العيون والشفاه وحياكة الملابس ذات الألوان الزاهية والتحمم اليومى، ثم لابد من استخدام العطر الذى تحرص على اقتنائه ويحرص زوجها على شرائه لها من السوق . .

وكانت تجيد الغناء بصوت رخيم جميل يدخل السرور إلى قلب زوجها . . وفى زمانها كان الزوج يأتى فى المنزلة التالية بعد الإله ويكون له نصيب من الطاعة والعبادة .

ولشدة ما كانت هذه الزوجة معجبة بزوجها فهو رجل حقيقى بكل معنى الكلمة . . والرجل الحقيقى فى هذا الزمان هو الذى يعمل ويتعبد ويتفانى فى حب أسرته . . ولقد زاد إعجابها به حين علمت منه أنه يعبد إلهًا واحدًا فى وقت تعددت فيه عبادة الآلهة . . وكان ذلك هو الشىء الوحيد الذى يعكر على هذه الأسرة صفوها،

إذ كانت تخشى أن يفتضح أمرهم ويعرف الملك أنهم من غير المؤمنين بآلهته فينكل بهم جميعًا.

وجاء وقت الكدر وكأنه من المستحيل أن ينعم الإنسان فى أى مكان وفى أى زمان بالصفاء المتواصل.. فتواصل الهناء من المستحيل، فلتهبى يا رياح الغضب لتقتلعى هذا البيت الآمن السعيد الذى لا ترتكب فيه خطيئة واحدة، ولذا يقال إن الكدر لا يأتى عقابًا وإنما يأتى امتحانًا.. وأحيانًا تكون الامتحانات قاسية تعصف بكل شىء فلا تبقى ولا تذر والعياذ بالله. جاء رجال الحكومة بغتة ذات صباح ليطلبوا منه مغادرة المكان والانضمام إلى فريق العمل الذى سيبنى بيتًا أبديّاً للملك. إذن سينتزعونه من بيته وأرضه وأسرته وإلهه.. ماذا سيبقى إذن؟!.. إن الموت أكثر رحمة!

اعترض ورفض فصفعه الجندى على وجهه وقيده بالسلاسل وسجنه. وبينما هم يجرجرونه من بيته لاحظ نظرة استباحة من الجندى لزوجته فتقطع قلبه إربًا.. وكل قطعة مذبوحة كانت ترمز إلى شىء: العمل -العبادة- الأسرة- الكرامة- الشرف، وكل واحدة منها لا يدفعها إلا الموت أى يموت هو فى سبيلها، الرجل الحقيقى هو الذى يذود عن عمله وعن إلهه وعن أسرته وعن كرامته وعن شرفه، وكلها أشياء أهدرت!

وحاول الجندى مع الزوجة ولكنها أبت فعذبها وسجنها فلم تلن. الموت أحب إلى من إهدار شرفى. انتحرت. وتجسدت روحها فى يمامة طارت إلى سجن زوجها فتعرفها.. ظلت تزوره

فى السجن يومياً وتغنى له إلى أن أفرجوا عنه وساقوه قهراً ليسهم فى بناء بيت الخلود للملك . وصمم على الانتقام، أيقتل الجندى أم يقتل الملك؟ أيهما أكثر ظلمًا؟ أيهما المسئول الأول؟ ووصل إلى قناعة أنه لولا الملك لما استطاع الجندى أن يمس بيته أو زوجته .

البيت ما أحلى البيت! والزوجة ما أحلى الزوجة! من لا بيت له فهو ضائع، من لا زوجة له فهو بائس . . وأى زوجة، إنها الزوجة الجميلة العفيفة . . وأى بيت!! إنه البقعة المطهرة فى حضن الجبل على ضفاف النهر . وكان عليه أن يتحين الفرصة لينال من الملك . وهذا أمر يكاد يكون مستحيلاً . . إلا أن الحياة لا يمكن أن تستمر دون أن يحمل فى داخله التصميم على الانتقام ليس مهماً أن ينجح ولكن المهم ألا يتخلى عن تصميمه ليكون هناك مبرر أوحد لاستمرار الحياة . لا يمكن لحياة أن تستمر دون وجود مبرر لاستمرارها . . والمبرر الأعظم هو أن تكون لك رسالة . . ورسالتى هى تطهير الأرض من ظالم لابد من عقابه . . ليس مهماً أن تحقق رسالتك ولكن المهم هو أن تسعى لتحقيقها، ليس شرطًا أن يكون هناك أمل فى التحقيق . . قد يخيب مسعاك، قد تفشل، قد تموت قبل أن تصل إلى هدفك، قد يتمكنون هم منك ويقتلونك . كل هذا ليس مهماً، المهم هو التصميم على شىء نبيل .

المهم هو إرادة السعى الشريف . . المهم هو رفع راية النضال من أجل الحق . المشكلة ليست فى مَن سنعاقب . . المشكلة ليست فى الملك الظالم . . المشكلة فينا نحن . . المشكلة هى مشكلتى أنا . .

ليس مهمّاً أن يموت الملك الظالم فى النهاية، لكن المهم هو أننى سعيت لقتله. إن التطهر الحقيقى يبدأ من عند هذه النقطة.. المهم هو أننى قايضت حياتى بشرفى.. قايضت حياتى بالدفاع عن بيتى.. قايضت حياتى بالدفاع عن كرامتى.. وقد أموت وأنا أسعى.. وقد يفلت الظالم وينجو من العقاب.. ولكن سيأتى من بعدى مَن سيمشى فى نفس الطريق لينتقم من ظالم آخر.. وقد ينجح وإذا نجح فالمعنى تحقق وهو نصرة الحق..

ولكن هناك معنى آخر قد تحقق منذ أن صمم صاحب الحق على أن ينتقم من الظالم.. معنى آخر تحقق حتى وإن فشل.. هذا المعنى هو أن إرادة الانتصار للحق والتصميم على الذود عن الشرف والكرامة والبيت والعقيدة لا يمكن أن تخبو أو تضعف أو تموت.. هذا فى حد ذاته انتصار للحق وهزيمة للظلم.. لأن الدفاع عن الحق هو قمة الشجاعة.. هو المقايضة على الحياة.. هو الترحيب بالموت.. هو سعادة الاستشهاد.. أما الظالم فهو جبان.. يخشى على حياته.. يختبئ وراء الدروع ليتسلح بالحديد والنار.

عملت باجتهاد حتى اشتهرت بأننى أفضل البنائين للصرح الكبير، وطارت سمعتى إلى الملك فأراد أن يقابلنى.. واتفقت مع زوجتى التى تجسدت فى صورة يمامة أن تحمل سكينًا وتطير به وتقذفه أمامى حين أقابل الملك لألتقطه وأغرسه فى قلبه وكان قد مضى على طردنا من بيتنا وانتهاك شرفنا وكرامتنا عشرون عامًا..

هكذا حملت تصميمى بين ضلوعى عشرين عامًا . . وهكذا ظلت يمامتى تغنى لى أنشودة الصبر كل مساء وهى تحط على نافذتى .

وحانت اللحظة الحاسمة لحظة المواجهة المباشرة بين الحق والظلم ، واستجمعت كل التاريخ فى يدى السمراء من شدة شمس الجنوب ، الخشنة من تقطيع الحجارة ، المتشققة من فلاحة الأرض الحنون ، من قطف الثمار ووضعها فى فم أفراد أسرتى . . كل التاريخ فى هذه اليد . . وهذا التاريخ يفرض على هذه اليد أن ترتفع بقوة لتحطم رمز الشر والظلم . . هذه اللحظة تروى عن تاريخ الجنوب منذ أن كان ويكون وسيكون . . أمس واليوم والغد . بوغت الملك وأنا أغرس السكين فى عنقه ، وتحشرج صوته بالسؤال . . لماذا؟ أجبته لأنك ظالم . . لقد أخطأت حين أتيت بواحد من أهل الجنوب ليبنى لك مقبرتك تحت تأثير القهر والظلم .

قبض الحراس علىَّ وعلى اليمامة . . وذبحوها ثم ذبحونى بينما كانت أعلام الشرف والكرامة ترفرف فى السماء ، وعادت روح زوجتى لتسكن جسد يمامة وسكنت أنا أيضًا جسد يمامة . . وطرنا معًا حيث كان موقع بيتنا وبنينا عشّاً فوق شجرة . وعاودنا العمل بجد واجتهاد . نستيقظ عند الفجر وننام عند المغرب . . ولم نفقد متعة أن ننام معًا مثلما كنا نفعل ونحن بشر . . وأعمق المتع كانت التسبيح بحمد الله .

●●●

أسطورة من قلب أسطورة

أن يصدقك إنسان وأنت كاذب فهذا لا يعنى براعتك، لكن لأن الطرف الآخر يريد أن يصدق. فكذبتك التى اخترعتها هى المخرج الوحيد له وحينئذ لا يملك إلا أن يصدقك حتى وإن كان جزء من وعيه يعرف أنك تكذب. . بل حتى إن كان كل وعيه يعرف أنك تكذب فى هذه الحالة يلغى نصف وعيه غير المصدق بل هو على استعداد لأن يلغى وعيه كله لأنه لا يريد أن يواجه نفسه بالحقيقة.

فالحقيقة تؤذى مشاعره، أو الحقيقة تفسد عليه ما يريد، أو الحقيقة تسد كل الأبواب أمامه ولا يبقى له إلا اليأس. إذن أنت تكذب وأنا أعرف أنك تكذب لكننى أصدقك لأدافع عنك ضد كل من يتهمك بالكذب. وهكذا الحال مع النصب والاحتيال والغش والخديعة. ولذا فلا توجد ضحية. وإذا لم توجد فلا يوجد جان بالرغم من أن الجريمة قد اقترفت، أى تم النصب أو الاحتيالَ أو الغش أو الخديعة. أو فلنقل إن الضحية. . الضحية هو شريك الجانى أو شريك المجرم. . إذ هو جان ومجرم. . وبذا تنتفى عنه صفة الضحية. . الضحية هو من اعتُدى عليه ضد إرادته بينما هو يقاوم أو يرد العدوان انتقامًا.

وتجرى لغة خاصة وحوار خاص بين الكاذب والطرف الآخر الذى يصدقه، وهذا الحوار مؤداه أننى **أعرف أنك كاذب وأنت**

تعرف أننى أعرف أنك كاذب والذى يدفعك إلى استمرار الكذب والتحدى هو أنك تعرف أننى أحتاج إلى هذه الكذبة . . ولذا فإننى استطعت أن أقنع نفسى بأنك لا تكذب . . أنا لا أصدقك . . وإن لم أصدقك فسوف أنهار لأن هذا معناه انعدام الأمل فلا بد أن تظهر لى أنك تصدق تصديقى لك . . وبذلك تضيع الحدود الفاصلة بين الكذب والصدق . . بين الوهم والحقيقة . . بين الغش والأمانة .

والأسطورة ما هى إلا أكذوبة لكنها ذات دلالة ومعنى . . ذات قيمة . .

الأسطورة هى كذب تاريخى ، ومن قدمه ، ومن مدلولاته نصدق أنه حقيقة .

هكذا كانت المدينة كلها تؤمن بالأسطورة وتدافع عنها وعاشت تحت ظلها منذ آلاف السنين . إذن هى أسطورة موروثة فهى قابلة للتصديق ، ولقد جاءت إلينا من عند أجدادنا العظماء . .

ولأنهم عظماء لا يكذبون ولقد ملكوا أسرار الحياة والكون .

وهذه المدينة شديدة البساطة بالرغم من أنها تنام بوداعة فى حضن أكبر المعابد وأفخمها . . المدينة هى التى تنتسب إلى المعبد وليس المعبد هو الذى ينتسب إلى المدينة . وربما سبقت المدينة وجود المعبد . ولكن من ير المعبد يشعر بأن المدينة تخضع له خضوعًا تامًا . . عشقًا واحترامًا وخضوعًا أيضًا . وربما كانت

المدينة سابقة على وجود المعبد وربما تكبره اتساعًا عشرات المرات، إلا أن المعبد يظل هو المؤثر والمهيمن، وتظل الأسطورة قابلة للتصديق إلى أبد الآبدين.

المدينة سمراء كالح لونها. أهلها من الضعفاء، إنهم بسطاء ويصدقون أى شىء. والراوى يحشو العقول ويسخن الأفئدة بحكاياته والتى لا يبقى منها بعد ذلك إلا المعنى. والحكايات متشابهة. وكل حكاية تحكى عن معجزة. إذن كل الأساطير هى معجزات ويجب ألا نسأل.. اسمع ولا تسأل. اقتنع دون أن تسأل.. هكذا تحدث المعجزة لأنها بيد الخالق. وهناك وسيط هو الذى يدلك على الطريق.. وسيط هو أذكى الناس وأقلهم احتياجًا لأنه هو الوحيد الذى لا يصدق.. هو الوحيد الذى يعرف الحقيقية.. هو الوحيد الذى ينفذ الخديعة.. هو الذى يعرف أصل الحكاية ولكنه صاحب المصلحة الأولى فى أن يؤكد صدق الأسطورة.. وهو يتململ حين يسأل الناس.. وقد يتحول تململه إلى حالة يتهم فيها الآخرين بالكفر والإلحاد. كيف لا تصدقون يا أولاد الـ..؟ سيغضب عليكم الله. سيقذفكم بالحجارة، أو يغرقكم بفيضان، أو تهب عليكم رياح وأعاصير تقتلعكم من جذوركم.

إذن صدقوا. وتقبلوا. وافرحوا. ولا تسألوا.. الوسيط كان من أبناء ومن سلالة الذين بنوا المعبد. صاحب وجه أسمر وطول زائد لا يتناسب مع العرض، ولذا تقاربت عيناه ووقف بينهما الأنف الطويل وكأنه يفض منازعة بينهما.. كما ضاق الفم

وغلظت الشفتان تعويضًا، واخشوشن الشعر وقصر ونحل الجسد بشدة وكان ذلك بسبب إفراطه فى الطول إلا أنه كان يمتلك ابتسامة ساحرة وصوتًا مقنعًا. . الصوت هو أحد الأسباب الرئيسية للإقناع خاصة إذا كان مصحوبًا بسحر الابتسامة.

فى هذه الحالة يصدقونك حتى إن كنت تكذب خاصة إذا داعبت خيالهم بأمنية غالية. . آه. . إنها الأمنية الغالية التى تستعصى على الحل بالأساليب العادية أو الطبيعية أو حتى العلمية.

إذن لابد أن تسبق الحلم محاولات جادة أساسها العلم، حتى إذا رفع العلم راية الاستسلام والهزيمة. . هنا ينبرى الوسيط ويحكى الأسطورة. والأسطورة تقول: إن السيدة التى لا تحمل تستطيع أن تزور المعبد منفردة عند كل فجر لتستحم عارية بالندى وتتطيب بماء الورد وتنتظر مجىء الكاهن الذى تسكن روحه المعبد منذ آلاف السنين. فإذا ظهر لها فهذا معناه أنه سيعالجها لتحمل بعد ذلك من زوجها. أما إذا لم يظهر لها الكاهن فهى سيئة الحظ ولن تحمل أبدًا. ومنذ قديم الزمان والسيدات يترددن على المعبد بنفس الطريقة التى وردت فى الأسطورة. وبعضهن يحملن والبعض الآخر لا يحالفه الحظ، تمامًا مثلما روت الأسطورة المصدقة وكأنها واقع وحقيقة، وكان الشاب الوسيط يتخذ المعبد سكنًا له ليرعى الأرواح التى تسكن فيه يطعمها ويسقيها بما يجود به الناس، هذا إذا حَنَّت إلى طعام الأرض!

ولنتحدث قليلاً عن هذا الوسيط إنه شاب من شباب المدينة ذو أصول قديمة ينبئ عنها شكله، تعثر فى التعليم فتركه إلى حرفة فلم يتقنها فهجرها. ثم حلم بأنه عين خادمًا وحارسًا للمعبد الكبير فانتقل للعيش فى داخله وتصور بعض الناس أن له كرامات فحرصوا على زيارته إذا مرضوا أو كانت لهم حاجة ملحة. فى البداية كانت البنات لا تألفه لدمامته وقلة كلامه ولكن من بعد أن صار حارسًا للمعبد بالأمر الروحى فإن كثيراً من النساء تبسطن فى الحديث معه وقربنه إليهن وأشفقن عليه وأمطرنه بالهدايا. . وانتشرت عنه شائعة بأنه يميل بجنون إلى النساء. وأن لديه قدرة جنسية فائقة ولكن سرعان ما اندثرت هذه الشائعة لثقة الناس به وسرعان ما مات أيضًا الشخص الذى روج للشائعة فى حادث مما زاد من إيمان الناس بكرامات الوسيط. وصفة وسيط اكتسبها لأنه كان يتوسط للسيدة فى دخول المعبد فجر كل يوم لتحمل، وظن بعضهن أنه يستطيع أن يتوسط لهن عند الكاهن ليظهر ويحملن.

كل الناس كانوا يصدقون. وكثير من السيدات على مدى سنوات طويلة رزقن بأطفال بتأثير الكاهن ووساطة الشاب. والحاجة كانت متبادلة للتصديق، ولم لا نصدق وتاريخ المنطقة كله محاط بالغموض؟! بل أشياء كثيرة جدت لم يتم كشف أسرارها وأنها حضارة عريقة تراكمت أسرارها بحيث أصبح من الواجب ألا تسأل وأن تقبل الحقائق كما هى. . بل من الأحوط ألا تسأل وإلا تعرضت لمخاطر سميت باللعنة. وبذلك تعوَّد الناس ألا يسألوا

ومن كشف له عن سر فعليه بالصمت . ولذا لم يكن أحد يجرؤ على سؤال النساء المترددات على المعبد ليحملن عما يحدث بالداخل، ولم تجرؤ إحداهن على الإفصاح عن كيف تم علاجهن . . لا أحد يسألهن ولا هن يتطوعن بالإفصاح عن شيء ولا أحد يقلقه أن يسأل . . فهكذا حكت الأسطورة والأسطورة صادقة ومنبتها حضارة عريقة تفوقت على علم الحاضر . والحقيقة أن هؤلاء الناس معذورون فالمدينة بسيطة وفقيرة وجاهلة والمعبد شاهق عملاق يخبر عن علم غزير كان ملك مَن بنوْه . إذن هناك جهل فى مقابل علم وضعف فى مقابل قوة . وبساطة فى مقابل غموض . وواقع ملموس فى مقابل تاريخ قديم . إذن فهؤلاء البسطاء ليس لديهم أدوات الإثبات والنفى .

بل ليس لديهم الآليات العقلية التى تنقب عن أصل الأشياء، بل لديهم من مثبطات الفكر ما يجعلهم يرتعدون لمجرد فكرة أن يسألوا . . وهنا إذا برز بينهم شخص واحد ذكى اتسعت عيناه واتسع عقله إلى خارج حدود المدينة وطالع الدنيا على حقيقتها، فإنه يستطيع أن يكذب وأن يصدقوه . وإذا أراد تصديقًا وخضوعًا وابتزازًا فإن عليه أن يلوح لهم بالأمل .

الأمل الذى من الممكن أن يتحقق على يديه، أى إذا عمل هو وسيطًا . . المشكلة أنه هو أحيانًا كان يصدق، وبذلك يكون هو فى نظر نفسه مدفوعًا ملهمًا مختارًا . أى ليس كاذبًا مخادعًا .

ويبـدو أنه بدأ يسهل لنفسه فكـرة أنه لا يكـذب . . لقـد أراد أن يبدو أمام نفسه فى صورة الصادق . . ولذا فإنه كان يدخل فى حالة من تشوش الوعى وهو يجامع النساء اللاتى يأتين طلبًا للحمل من روح الكاهن . . فى السنوات الأولى كـــان يعى كل شىء، ويؤدى كل شىء بيقظة تامة . . فكان يتلفع بعباءة سوداء . ويهمهم بلغة غير مفهومة ويقترب من المرأة الراكعة العارية وينام معها ويتكرر ذلك خمس أو ست مرات على مدى أربعين يومًا تحمل بعدها أو لا تحمل . وهو الوحيد الذى يعرف أنه لا يوجـد كاهـن ولا يحزنون . ولكن فى السنوات الأخيرة أصابه تغيير ما . . لقد أحب . . وكانت حبيبته فتاة صغيرة وتزوجت من رجل طاعن فى السن من وجهاء المدينة ذوى المال والسطوة . . وامتنع عنها الحمل فحملت ببركات الكاهن . ولكن صاحبنا الوسيط أحبها وتصور أنه لن يستطيع الاستغناء عنها .

ولذا بدأ فى المرحلة الجديدة وهى مرحلة أن يصدق أن ما يقوم به مع النســاء ليحملــن إنما يتم بدفع ومباركة ومن روح الكاهن . ولم يبذل مجهودًا كبيرًا فى إقناعها بحبه ودفعها إلى حبه كشاب له بركات خاصة .

وفى يوم من الأيام اكتشف الزوج المُسنُّ اختفاء زوجته الشابة الحامل، وعلى مدى أسبوع آخر تيقن أهل المدينة من اختفاء الوسيط .

ولم تسلم حادثة الاختفاء من أن تصبح أسطورة! . . فقالوا إن السيدة الصغيرة أفصحت بالسر فعاقبها الإله بأن أجهضها أولاً ثم دفنها حية . . وأن الإله أيضًا عاقب أهل المدينة بحرمانهم من الوسيط ودفعه للانتقال ليعمل فى معبد آخر بعيد. وأخذ اللاتى يحتجن إليه يبحثن عنه فى كل مكان فلم يجدنه فاستسلمن. إلى أن ظهر وسيط جديد يساعد النساء على الحمل من روح الكاهن!

●●●

٦٠ - ٧٠ - ٨٠ - ٩٠

●● ستون:

ما هذا التتابع السريع للسنوات؟! . . هكذا فجأة أصبحت فى الستين . وأمس كنت فى الثلاثين، وقبل أمس كنت فى العاشرة . يا من يدلنى كيف أعود إلى الوراء زحفًا أو منتصبًا أو طائرًا؟! وهل هذا ممكن؟! إذن عليك أن تقبل الأمر الواقع وأن تقر بالحقيقة وهى أنك قد وصلت الستين!

وما المشكلة؟! أنا حقّاً فى الستين ولكننى ما زلت أملك حس ومشاعر وقوة وطاقة وجمال إنسان فى العشرين أو قبل الثلاثين . نعم الثلاثين . ليس أكبر من الثلاثين . أنا أعرف نفسى وأنا أشعر بنفسى بيولوجيّاً والحمد لله «زى الحديد»!

ولكن المشكلة أنه تنتابنى أحيانًا حالات من الهبوط المفاجئ فى المعنويات أنهض صباحًا بدون رغبة فى الاستيقاظ لا أريد أن أرفع الغطاء من فوق رأسى حتى لا أرى النور . أشعر بأننى مهزوم، وأننى ضئيل ، وأننى لا شىء وأن الماضى كان عبثًا وأن الحاضر عبث وأن المستقبل هباء منبث . . لا شىء يستحق وكل أمر بلا جدوى . ولكننى أضغط على نفسى وأنهض فأنا محارب! أنا جسور لابد أن أفعل شيئًا -أرتدى ملابسى وأخرج- أخترع مشوارًا اجتماعيّاً

مهماً. ما زلت أريد أن أستمر مُهمّاً. ما أقسى أن تكون مهمّاً ثم تصبح غير مهم. أين السيارة التى كانت تسبقنى والحرس الذين كانوا يحوطوننى وأين انتفاضة الرجال حين رؤيتى.. آه.. دوام الحال من المحال.. ولكننى أصر على البقاء.. الاستمرار.. فأذهب إلى الاجتماع الشرفى. أصغرهم سنّاً أنا، أكبرهم فى الثمانين أو يزيد، مناقشات فارغة هجوم على الجيل الحاضر. نَعْيُ الماضى.. سكرتيرة الاجتماع بنت مليحة ما زلت أشعر بقوة تجاه النساء هل أستطيع التعرف عليها..؟ هل تتقبل أن أقيم معها علاقة. أو لعلها مرتبطة بشاب فى سنها. أو ربما هى تهوى كبار السن لتنهل من عقولهم أو جيوبهم حاولت أن أغازلها فصدتنى بأدب وخوف، ولكننى أصررت ونجحت. هى مخطوبة فعلاً ولكن ليس لديها مانع من قضاء بعض الوقت الممتع ولكن لكل شىء ثمنًا.

مفاصلى تئن. لابد من زيارة أكثر من طبيب وتناول حوالى خمسة أو ستة أقراص يوميّاً وحقنة كل أسبوع، ولكن ما زلت لا أحتاج تلك الأقراص التى يثيرون حولها ضجة. لابد أن أظهر ميولاً سياسية تتفق مع الاتجاه العام حتى ينظروا نحوى.. نجحت محاولاتى.. اختارونى لمنصب.. ما زلت قادراً على الإبداع والعطاء. فى العالم كله لا يكفون عن العمل إلا بعد السبعين وأنا ما زلت صغيراً فى الستين!

●● سبعون:

ياه . . وصلت السبعين ! ! يا له من رقم مفزع كنت فى شبابى أحب رقم سبعة والآن أكرهه خاصة إذا كان مسبوقًا برقم آخر ، الشعر على وشك الاختفاء بعد أن تراجع كثيرًا وما بقى هو أبيض كالثلج ، تجاعيد كثيرة ظهرت على الوجه وحركة البدن بطيئة ولكننى أمشى . . نعم أمشى . . أمشى ولمسافات طويلة هكذا أسمع فى كل لحظة أن المشى يعيد الشباب وأنا أحن بشدة لأكون فى مثل حيوية الشباب أكره أن أكون كبيرًا مسنًا ، ولكن لابد من الاعتراف . . لقد تراجعت بعض الوظائف المهمة ، ولكننى ما زلت على وَلَعى بالحب وروجت لمقولة إن الحب أهم من الجنس ولكن هذا قصر ذيل . . ولكن الأمور ليست سيئة ما زال هناك حركة ولكن الضغط لا يريد أن ينخفض ومن الستين إلى السبعين تعرضت لنوبتين فى القلب . امش الهوينى . لا تأكل كثيرًا لا تدخن ، نم مبكرًا . لقد كرهت كل هذه التعليمات وأنا أحب أن أخرقها عن عمد . أنا أريد أن أستمتع بالحياة . أنا أحب الحياة . ماذا بقى لى من العمر ؟ عام ؟ ! عامان ؟ ! خمسة ؟ !

كثيرون من جيلى قد ماتوا ، إن الموت يقترب ، ولذا زادت أوقات الاكتئاب ، ولكن أقاوم وما زال هناك أحياء فى الثمانين بل فى التسعين . أنا أعرف بعضهم . أعرف من تزوج وهو فى الخامسة والسبعين ، وأعرف من صادق فى الحرام وهو فى الثمانين . إذن ما زال هناك أمل وأشياء كثيرة فى الحياة لها طعم جميل . الطعام

والنساء والسفر إلى الخارج والعمل بالسياسة، نعم العمل بالسياسة يحيى القلب.

أنت لا تكون مهمّاً إلا إذا عملت بالسياسة واصطنعت معارك حتى تعرضت للهجوم الضارى، لأن ذلك يعنى أنك ما زلت حيّاً وما زلت قويّاً وما زلت مهمّاً. لابد أن تتشدد، ولابد أن تكون سليط اللسان، ولابد أن تثير صخبًا.. والاحتياج للمال يكون أكثر فى هذه المرحلة لأنه يجب أن تدفع أكثر. يجب أن تكون سخيّاً مع الخدم ومع النساء ومع المرافقين. ما أسوأ أن ينحسر عنك الضوء بعد أن كنت مهمّاً!

الصحف تحمل أنباء سارة عن أقراص عظيمة الفائدة وعن عقاقير للطاقة وعن جراحات تجميل تجعل الوجه يبدو فى العشرين أو أقل حتى الثلاثين، طيب «يا ريت» أبدو فى الأربعين نعم الأربعين ليس فوق الأربعين. الحمد لله الذاكرة ما زالت بخير، إنهم يتحدثون كثيراً عن النسيان ولكننى لا أنسى، الذاكرة فقط. المهم أن يكون القلب نابضًا والجيب ممتلئًا. ولا يمتلئ جيب إلا من مشروعات عظيمة وضخمة، وإذا كنت فى السلطة فأنت تستطيع أن تجمع أكثر وأكثر. لا بد أن تتحول إلى رجل أعمال مستتر أو رجل أعمال ومشارك.

أندهش لمن ينزعجون من سن السبعين فى عصرنا هذا. سن السبعين تقابل سن الأربعين فى الماضى..

فلنرفع شعار : الحياة ما زالت جميلة فى السبعين .

وأحيانًا أحلم بأمى وأبى وقد عادا إلى الحياة فأشعر وكأننى طفل . . أشعر أحيانًا باحتياجى لمشورة أبى وأنا فى السبعين، وأشعر بحنين إلى يد أمى تمسح فوق رأسى وأنا فى السبعين وأشتاق للآيس كريم وشاطئ البحر وامتداح جمال امرأة حتى يلف رأسها، إن امتداح جمالها هذا هو الطريق الوحيد لقلب امرأة إلا إذا كانت صاحبة أقدم مهنة فى التاريخ . . فى هذه الحالة لا يهمها إلا امتلاء جيبك . . فى سن السبعين تتكلم كثيراً وتفعل قليلاً وتدفع كثيراً . الدفع أم الرفض والتجاهل . أذهب سراً إلى زيارة أضرحة أولياء الله الصالحين . أختفى عن عيون أصدقائى ولا أخبرهم بتلك الزيارات السرية غير المقنعة بالنسبة لهم . . ولكننى أشعر بارتياح بالغ وأتوضأ وأصلى بخشوع وأقرأ المصحف بتمعن وتأثير وتنزل دموعى من خشية الله . . فى السبعين تزداد قربًا من الله مثلما يزداد اقترابك من باطن الأرض، وكأنك تحاول أن تصعد إلى أعلى بدلاً من أن تهبط إلى أسفل . .

وأتصور أن الله سيغفر لى لأن قلبى يذوب تبتلاً فى حبه ولكننى ما زلت أتردد أيضًا على مجالس الأنس حيث الظرفاء والأثرياء والقوم المحترمون . . ما زال القلب شاباً رغم الجلطات المتكررة وما زال الميل للحب جارفًا، ولكننى يجب أن أحفظ التوازن بين هوى الروح وهوى القلب وما زال الجسد يهوى أيضًا، ولكن باعتدال

يتناسب مع حجم التراجع . . أتحاشى الدخول فى منافسة مع الشباب وأفضل اللقاء مع من هم فى مثل عمرى . بريق المال والسلطة لشد أعين الصغيرات أكثر من بريق الشباب فى هذه الأيام، والموضة هى الجمع بين الاثنين . . واحد للحب وآخر للدفع معظم الصفقات تشهدها نساء إما بالمشاركة وإما بالاستفادة النهائية وبعضهن أعلنَّ الاستقلال . أشهرن جمعية سيدات الأعمال، أعمل كثيراً ولا أتعب . ما زلت ممتلئًا بالحماسة . عمرك الحقيقى هو ما تشعر به وليس ما هو مدون فى الأوراق الرسمية .

●● ثمانون:

لم أشعر أن الموت قريب جداً إلا حينما بلغت الثمانين، وكأن مسدسًا تلاصق فوهته رأسى وينتظر من يضغط الزناد فى أى لحظة أو كأن حبلاً ملتفّاً حول عنقى ينتظر من يشده فى أى لحظة لتزهق روحى . .

ذهب كل الأصدقاء لم يبق لى إلا الذكريات التى تنعشها أغنيات قديمة وأفلام شاهدتها عشرات المرات إلا أنها تسعدنى أكثر كلما تقدمت فى العمر . إنها الخيط الوحيد الذى يربطنى بالأيام الحلوة إلا أن حبى للحياة لم يمت بعد . . أمشى نصف ساعة يومياً . . أتناول كميات هائلة من المقويات والفيتامينات إلا أن شغفى بالنساء قد خَفَت تمامًا . . عدت أكتفى بالحديث الذى يفيض بالمرح ويوحى بالغزل ويشى بالغواية، ولكن دون أن أتقدم خطوة أكثر من ذلك

من الصغيرات . . لم يعد يهمنى الجمال وأنا فى الثمانين . ولم يعد يهمنى المستوى الثقافى والاجتماعى . . ولكن يكفى أن ترضى بالحديث معى فى سن الثمانين . يجب أن تبذل جهداً ليرضى الناس أن يلتفتوا إليك . سن الثمانين لا تخطئها عين . . الجسد تكور وتكعبر وتشقق، إلا أن أعظم نعمة هى أن يظل العقل متقداً والقلب متحمساً والمعدة سليمة، من المتع القليلة المتبقية للإنسان فى سن الثمانين هى متعة الأكل .

أفكر كثيراً فى اللقاء المرتقب مع الله . . أفزع لهول ما ارتكبت من آثام . . أستغفر وأستغفر وأستغفر . . رحمتك يا رب . .

وأخشى ما أخشاه أن يحاسبنى الله على أيام الشك والتجديف لقد كنت مجنوناً وقتها بالفلسفة والعدالة . . وعن طريق العلم وصلت إلى الحقيقة وهى أن الحق موجود وهو الخالق لكل الكائنات من النملة إلى الإنسان ولم أهتد إليك إلا حينما وصلت إلى أن الحياة يحكمها قانون واحد هو قانون الماء والهواء لكل الأحياء ورغم ذلك تنتابنى للحظات أفكار شيطانية، وقد بلغت الثمانين وذلك حين أفكر لماذا خلقنا، ما الهدف من الحياة والعقاب والثواب؟ نولد لنموت، إذن ما المعنى وما الفائدة؟! أولد ضعيفاً وأموت ضعيفاً وأعانى معاناة غليظة فيما بين الميلاد والموت . ترحب بى الحياة وأنا شاب وتلفظنى الحياة والأحياء وأنا مُسنٌّ، أى قسوة؟! وأستغفر الله وأكاد أشنق نفسى لسخافة الأفكار التى تقتحمنى،

والتى أعتبرها الطبيب مرضًا يسمى الوسواس القهرى. تناولت له علاجًا.

أقصى درجات متعتى حين أزور قريبة لى اقتربت كثيرًا من السبعين. كانت بيننا علاقة غرامية فى سن الشباب. يشملنى السرور حين أقترب من شارعها يرقص قلبى حين أطرق الباب. هو زهو الشباب حين ترحب بى بشدة وتعد لى طعامًا شهيّاً ونأكل معًا على أغان عمرها يزيد على ستين عامًا ولم يعترض أحد من أقاربها على هذه الزيارات لأنه من غير المتوقع أن يكون الشيطان ثالثنا!

●● تسعون:

ما زلت أستطيع أن أمشى ولكن بصعوبة غير بالغة يصاحبنى مرافق إذا خرجت إلى الشارع أذهب إلى حديقة قريبة ولا هدف إلا مراقبة الناس. ما أروع أن يكون هناك ناس. الحياة هى الناس.. تسليتى الوحيدة أختلق سيناريوهات.. أقرأ لغة الشفاه من على بعد، أستشف المشاعر من تعبيرات الوجوه فأستطيع أن أقول لك: هذان فى حالة حب، وهذا فى حالة ضجر، وهؤلاء فى حالة سرور. لا أجوع تقريبًا وانعدم جوعى للنساء ولا صديق بقى على قيد الحياة ولا يصاحبنى إلا الحفيد الذى يتقاضى أتعاب المرافقة. أنام أكثر مما أصحو. البطء الشديد فى كل شىء وعيى متيقظ وتركيزى كامل إلا فى لحظات أغيب فيها.. ربما أغادر الدنيا بعض الوقت.. بروفة موت!.. وفى مرة رأيتنى أنزل قبرى رأى

العين فى إحدى غفواتى، ورأيتنى فى مرة أخرى أرضع من ثدى أمى وكأننى رجعت طفلاً، وفى مرة أخرى كنت متوعكًا فرأيتنى وأنا فى التسعين أجلس على حجر أمى وأرضع من ثديها الضامر الذى كان يقطر لبنًا وعسلاً، وفى إحدى المرات فزعت إذ رأيتنى أحاول أن أدخل إلى رحم أمى مرة أخرى، وفى أحيان كثيرة أنادى عليها وأنادى أبى أيضًا، وكأنى أطلب منهما الاستعداد للقائى . . أنا قادم!

وفى يوم مرضت بشدة وغبت عن الوعى معظم الوقت والتفوا من حولى لم أر دموعًا فى الأعين وإنما ترقبًا ومن بين الوجوه المحيطة برز وجه عزرائيل، قال لى: لقد أمهلت كثيرًا هيا تعال معى. فى هذه اللحظة تمثَّلت أمام عينى كل الآثام التى ارتكبتها فطلبت منه أن يمهلنى بعض الوقت لأستغفر. أريد فرصة لأفعل خيرًا يمحو بعض سيئاتى. . نظر إلىَّ ملك الموت شذرًا وقال: لا فائدة. فسقطت فى غيبوبة أعمق ووجدتنى أصعد إلى السماء! . اقتربت من الباب فقدت إحساسى بوزنى وتحولت إلى شىء آخر لم أستطع أن أدركه. . شملنى صفاء وسمعت همهمات ورأيت ألوانًا متداخلة وقلت لنفسى: لعلى غادرت الحياة إلى الأبد وأنا الآن فى طريقى إلى العالم الآخر. وربما غفر لى وتم حسابى وأنا الآن فى طريقى إلى اللقاء ومن بعده الجنة. وفى غيبوبة أخرى فزعت إذ رأيتنى أقترب من جهنم ثمة رائحة شواء تنبعث وأصوات مكتومة تصرخ بالألم ووهج حارق يشع من بعيد وأسمع من يُعدِّد

لى آثامى فأطلب الرحمة. لا أحد يستمع لى فقد فات الوقت. وحين يزول عنى المرض أستعيد وعيى. الرؤية المحدودة وأسمع بصعوبة ولكننى أحب أن أتكلم ولم أكف عن الكلام إلا فى حالات المرض الشديد، لى حفيد مهتم بالتاريخ يأتينى ليسمع منى سألنى النصيحة قلت له: لا تصدق إلا ما تراه عيناك، ولا تؤمن إلا بما يدفعك إليه قلبك واجعل الرحمة فوق كل شىء. اندهش الحفيد وسأل: أجعل الرحمة فوق الحق والعدل؟! فقلت له عن يقين كامل وقناعة مطلقة: نعم!

انحطَّت قواى إلى الحد الذى منعنى من الذهاب للحديقة لمتابعة الناس، حُرمت من متعتى الوحيدة.. وتملكتنى مشاعر العجز واليأس وناديت الله طالبًا الرحمة، رحمة الموت!

●●●

المباغتة والابتلاع

يستوعب البحر كل ما تلفظه الأرض وكل ما يسقط عليه من السماء. الأعماق السحيقة قادرة على ابتلاع الأرض ذاتها. وابتلاع الأرض لا يكون دفعة واحدة وإنما شبراً شبراً.. قضمة قضمة.

اندثرت مدن وطفت مدن.. هلك بشر وكتبت حياة جديدة لبشر آخرين، وليس المهم من اندثر ومن طفا، من هلك ومن عاش، وإنما المهم أن تظل العلاقة الثلاثية أرضًا وسماء وبحراً.. من البحر إلى السماء إلى الأرض إلى البحر. ومن البحر يتخلق النهر مروراً بالسماء. النهر من صلب البحر. فالبحر أصل الحياة.

البحر هو الأصل. البحر هو الأقوى والأبقى. نهلك بدون البحر ونهلك فى البحر أيضًا إذا غضب. ولا أحد يعرف لماذا يغضب البحر أحيانًا ولماذا يصفو فى أحيان أخرى؟ وكيف يكون مبعثًا لحياة ومبعثًا للموت أيضًا؟!

هذا البحر حمل النبى طفلاً لبر الأمان، مرة أخرى أهلك أعداء النبى. ومن يؤذِ نبياً يبتلعه بحر أو يغرقه طوفان!

وليست كل رحلة عبرَهُ مأمونة، فكم حوى قاع البحر من صنوف البشر. مقبرة بلا حدود ليست كمقابر الأرض الضيقة. رحابة تخنق مثلما يخنق الضيق. مكتوب على من يموت بحراً أن يختنق أولاً قبل أن يموت.. ومكتوب على من يموت أرضًا

أن يختنق ثانيًا بعد أن يموت وتتعدد الوسائل والموت واحد. الموت هو الموت. ولا يوجد موت بلا حياة. ولا توجد حياة بلا موت فالحياة سابقة على الموت. دليل على أن حياة كانت قبله. وستعقبه حتمًا أخرى.. حياة فموت فحياة.. فأهلاً بالموت مثلما أهلاً بالحياة وشكرًا للبحر الذى يهب نهرًا وطعامًا وزينة النساء، وشكرًا للبحر الذى يسهم فى موت بعض البشر.. البحر يهب حياة ويهب موتًا.. يهب أمنًا ويهب هلعًا.. يهب استرخاء ويهب انقباضًا.. يهب صفاء ويهب استفزازًا.. يهب ترحيبًا ويهب تحديًا.. هادئ ساخط.. باسط فاتر.. وديع هادر.. هامس صاخب.

لا استقرار على حال واحدة. هو محير لأنه متغير.. وأنت يا حبيبى مثل البحر تمامًا. أقسم بالله أنك مثل البحر ولقد تعبت.. أرهقت ولن أستطيع أن أجبر على هذا التذبذب الذى أحال حياتى إلى جحيم وصبغها بالتعاسة وأدماها بالقلق والخوف حتى فشل جهازى العصبى فى الصمود أمام أبسط أحداث الحياة.. أصبحتُ أنهار سريعًا.. أضطرب أمام أى مشكلة.. أخاف أى مواجهة.. أرتعش لأخفت صوت.. تعبت.. تعبت.. قَل نومى وقَل طعامى ونحل قوامى واضطربت دورتى الشهرية فاختلفت مواعيدها وكثرت كميتها أحيانًا وقلت إلى حد العدم فى أحيان أخرى.. أصبحَتْ أكثر إيلامًا لا يتفوق عليها إلا معدتى حين تتألم وكثيرًا ما تتألم حين تباغتنى يا زوجى بطلبك أن تعاشرنى فتتصلب كل عضلاتى وتتلوى كل أمعائى ويصعد الحامض من معدتى إلى حلقى ليكويه.

لقد زهدت الحياة معك بل زهدت الحياة كلها . . تراجعت ابتسامتى وخبا سرورى وقل استمتاعى . . أصبح للحياة مذاق غير طيب وأصبح النهار بلا معنى والليل كالسجن لأنه يربطنى بك فى سرير واحد . قَل فرحى بالصحبة والنزهة والطعام الطيب والسهر بصحبة القمر والنغم . . ثم إنى أصبحت ذاهلة عن عملى وعن أولادى لا أتذكر كمن ضمر مخه وتراجع عقله . وإذا سألونى عن عيوبك ولماذا أريد الانفصال عنك فليس لدى سبب مقنع لأى أحد ولكن لدى أسبابى التى أقتنع بها وحدى . كل الناس يرونك مثالياً مخلصًا لى ومحباً لأسرتك مستقيمًا فى خلقك . . وكل هذا صحيح ولكننى أفتقد شيئًا مهماً معك . أفتقد الاستقرار النفسى ، أفتقد دقات القلب فى تؤدة والنبض فى اعتداله والتنفس فى إيقاعه المنتظم . . إنك تصيب كل أجهزتى بالخلل . . تسبب فى داخلى عدم توازن بيولوجى ، بالإضافة إلى حالة الكرب التى أصاب بها .

والسبب فى كل ذلك هو المباغتة فى كل شىء المباغتة فى غضبك . . والمباغتة فى رضاك . . المباغتة فى صفائك . . والمباغتة فى عكرك . . المباغتة فى رقتك والمباغتة فى وحشيتك . لا تمهيد لشىء لأستعد وأتهيأ . أفقدتنى القدرة على التوقع والتنبؤ . أنقلب من حال إلى حال فى لحظة واحدة . من الهجير إلى الصقيع والعكس . وفى ذلك حضيض عدم الإنسانية ، وإذا بك تتمادى فى كل انفعالاتك المتأرجحة ، وذلك يزيد أكثر من إرهاقى النفسى والعصبى . أنت لا تعرف الوسط . أنت لا تعرف الاعتدال . أنت لا تعرف الموازنة بين

الأمور المختلفة والأضداد. أنت تميل كل الميل فى ظلمك وعدلك، فى حبك ونفورك، فى قربك وابتعادك، فى مرحك وفى كدرك.

كما أن تقلباتك المفاجئة مجهولة السبب فى معظم الأحيان. وإذا كان هناك فهو واه غير مقنع، فأنت لا تعرف الموازنة بين الأفعال وردود الأفعال. لا تعرف كبح جماح استجاباتك وفقًا لمقتضيات الموقف، ولا تعرف مرونة مواجهة التداعيات!

كما تعوزك حكمة معالجة الأمور بمنطق يفرض نفسه على الجميع بمن فيهم أنا وليس بمنطق خاص بك أنت وحدك من وحى افتراضاتك والتى مبعثها نقاط ضعفك المتعددة، وعدم ثقتك بنفسك داخليّاً وعدم ثقتك بالآخرين، ولذا فإنه لا تبدو لى فى معظم الأحيان علاقة واضحة بين رد فعلك وطبيعة الموقف، وأتصور أنك تتعدى الموقف لتتناول الأشخاص وليس الحدث، وكأنك تريد أن تعاقبهم بدون جريمة اقترفوها. وفى أحيان أخرى تسترضيهم دون مبرر وكأنما تطلب رضاهم ليسامحوك فيما فعلته بهم. وبالتالى فأنت لا تقدر مشاعر الآخرين إلى حد عدم الرحمة. وانتزاعُ الرحمة من قلب إنسان ولو لدقيقة واحدة كفيل فى أن يتسبب فى قتل إنسان آخر أو حتى حيوان، وكفيلُ بإحراق زرع أو تسميم مياه. لقد أحرقت أعصابى وسممت حياتى فقتلتنى معنويّاً. إنى أشعر بالدوار. لقد أفقدتنى توازنى. ليتك كنت عصبيّاً فأتعلم كيف أتحاشى استفزازك. ليتك كنت عدائيّاً فأتعلم كيف أزرع الحب فى قلبك وأنزع منه العداوة!

ليتك كنت عدوانيّاً فأتعلم كيف أداوى بالخير روحك حتى تصبح خيّراً . . ولكنك لا هذا ولا ذاك . أنت كالأرجوحة بدفعة بسيطة تنحدر يمينًا وبقوة الدفع المضاد تنحدر يسارًا . و أنا طفلة صغيرة كانت تصيبنى بالدوار ، وكنت أعجب كيف يحبها الأطفال ويتلهفون عليها .

أنا أحب الاستقرار والاعتدال ، أثق فى مَن له اتجاه واضح ومحدد ، وأطمئن إلى من يقدر الظروف ، وأحترم من يضبط مخارج انفعالاته لتتناسب مع الموقف وتحتويه ، وأعشق المنطق والحكمة والمرونة التى تفرخ التسامح فينخفض الغضب إلى الحد الأدنى وتشل العدوان وتمحق العداوة .

وأنت يا حبيبى لأنى أحببتك يومًا ما قد أكون ما زلت أحمل لك قليلاً من الحب ولا أكرهك ولكننى لا أستطيع أن أعيش معك . ومَن تلك التى تتزوج بحرًا وتستطيع أن تستمر فى الحياة معه؟ البحر لا يرتاده إلا الصيادون وما أنا بصائدة ، ولا يغوص فى أعماقه إلا الباحث عن اللؤلؤ ليثرى وأنا قانعة بحالى . . أنا أحب البحر فقط من على شاطئه . . أهوى مراقبته عن بعد . . أستنشق بعمق هواءه المشبع برائحة الحياة . . ولكننى أكره أن يبتلعنى أكره أن يغتالنى . أكره أن يرهق أعصابى بتقلباته المفاجئة المباغتة مثلك تمامًا يا حبيبى . . ومثلما يا حبيبى ابتلعتنى أو حاولت أن تبتلعنى ولكننى قاومت وقفزت من بطنك مثلما قفز نبى من بطن الحوت . الزواج ليس ابتلاعًا ولكنه تلاصق إرادى . . فم يلاصق فمًا وأنفاس تختلط

مع أنفاس وجسد يلاصق جسداً ودماء تشعر بفورة وسخونة دماء أخرى . . وفكر يقارع فكراً . . وعقل يستمد وعيه من عقل إنسان آخر مثلما يمده بالوعى . . ووجدان يستمد وهجه من وجدان إنسان آخر مثلما يسهم فى توهجه .

هذا هو الزواج يا زوجى وهذا هو الحب يا حبيبى، ولكنك تجاهلتنى كإنسانة وكحبيبة وكزوجة فتماديت وتركت لمزاجك العنان ليتقلب كما يشاء وكيف يشاء فأصعد وأهبط محمولة على أوتار حنجرتك حين يزأر صوتك غضباً أو يخفت أنساً، وأتأرجح يمناً ويساراً وكأنك تمسكنى من شعرى وتطيح بى حيثما يوجهك سخطك أو رضاك فإذا تكلمت أسكتنى، وإذا اعترضت أخرستنى، وإذا صرخت سددت أذنيك لا تريد أن تسمع صوتاً إلا صوتك، ولا يسود رأى إلا رأيك، ولا تشيع حالة وجدانية من سرور أو شرور إلا بوحى من مزاجك الشخصى . لقد ألغيتنى مثلما أرهقتنى!

لا تريد أن تطلقنى تقول إنك تحبنى . . وأنا بتعريفى للحب أقول إنك لا تحبنى . أنت تحبنى بطريقتك الخاصة . إنه حب أنانى لأنك أنانى . الأنانى لا يرى إلا نفسه ولا يحب إلا نفسه، وإذا أحب شيئاً آخر فمن خلال حبه لنفسه . الأنانى يفرض مزاجه، ويفرض اللون الذى يستهويه، ويفرض المنطق الذى يحقق له أهدافه ولا يطلق سهماً إلا فى الاتجاه الذى يوصله إلى أغراضه . الأنانى يتجاهل مشاعر الآخرين واحتياجاتهم . . الأنانى يضغط ويضغط ويضغط . تطلب منى أن أذكِّرك ببعض المواقف .

وأنا أقول لك إن المرأة لا تنسى، احذر ذاكرة المرأة. فى الوقت المناسب تستخرج ما فى جعبتها.

أتتذكر كم من مرة أصررت على أن تظل الحجرة مضاءة، لأنك تريد أن تقرأ بينما أنا أعانى الأرق، ولدى عمل فى اليوم التالى؟!

لا أتذكر أنك جاملتنى ولو مرة واحدة، وتركتنى أنام بدون إزعاج.

أتتذكر إصرارك على التكييف البارد بينما أنا أعانى مرضًا يجعلنى أرتعش من شدة الإحساس بالبرودة؟!.. لا أتذكر أى تضحية منك وأنا مريضة!

أتتذكر الضغط علىَّ لزيارة صديقك وزوجته أكثر من مرة ولسنوات، رغم أننى لم أكن أحب هذه السيدة ولم أكن أثق بهذا الصديق، وتجاهلت مشاعرى ولم تحترم رغبتى حتى اكتشفت بنفسك أن صديقك المخلص يغازلنى؟!

أتتذكر ثورتك العارمة لأنى كنت أريد أن أتحفظ فى علاقتى بشقيقتك لأسباب أراها من وجهة نظرى مهمة. وكان من الممكن أن تتصرف بهدوء وحب لتقرب بينى وبين شقيقتك وتزيل الخلاف بيننا؟!

أتتذكر إصرارك على الأفلام التى نراها والأغنيات التى نسمعها والأماكن التى نستجم فيها دون أن يكون لى رأى فى ذلك، ودون أن تسألنى عما أحب ولا أحب؟!

ألا تتذكر خلافاتنا حول تربية أطفالنا وإصرارك على وجهة نظرك دون اعتبار لموقفى كأم؟ أنسيت صوتك الذى يرتفع دون سبب وعباراتك الثقيلة الجارحة؟

أنسيت تسفيهك لرأيى دائمًا خاصة أمام الناس حتى تقلل من شأنى وترفع من شأنك، مع أن شأنك هو شأنى ومكانتك هى مكانتى، وأن يكون احترام الناس لنا كزوجين معًا وليس كل منَّا على حدة، وكأننا فى مسابقة أو سباق للفوز باهتمام الناس وتقديرهم؟! وكنت أتغاضى عن الأشياء، وأشياء كثيرة مثلها لأننى كنت أحبك. كنت أحب الجلوس إلى شاطئك والاستمتاع بمظلتك والائتناس بوجودك والشعور بك كرجل!

ولكن ما أزعجنى إلى حد الهلع هو مباغتتك المضنية المرهقة ومحاولاتك المستميتة والنشطة لابتلاعى. وهنا أدركت أننى سأضيع، ولهذا فأنا مصممة على الانفصال. أنت تقول إننا سعداء، هذا غير حقيقى.. أنت فقط الذى كنت سعيدًا لأنك كنت تأخذ ولاتعطى. لأنك كنت تأخذ راحتك وبراحك فى الضغط علىَّ ولم تعان أنت أى ضغط. كنت تمد ذراعيك وساقيك إلى أى مدى دون أن تصطدم بشىء. كان يعلو صوتك إلى أقصى حد دون أن تجد من يرد عليك. فطبيعى أن تقاوم الانفصال إذ تجد مسندًا مريحًا مثلى وأين تجد متكأ يتحملك مثلى؟!

لقد أخطأت إذ تماديت . لقد استمر سكوتى وتقبلى . لم تكن تدرك أننى أصبر ، وأن لكل شىء نهاية ولكل إنسان درجة احتمال بعدها يسقط أو يحاول أن ينقذ نفسه من السقوط فيهرب . لقد سقطت لأننى صبرت طويلاً . . صبرت أكثر مما ينبغى فلم أتحمل ولكننى أقف الآن على قدمين ثابتتين . لقد استعدت ثباتى بعد أن قررت الرحيل . ولعلك تتعلم الدرس أى تستوعبه ثم تعمل به فى المستقبل ، والدرس هو ألا تطغى فهناك حدود لكل شىء والعاقل هو الذى يعرف أين يتوقف ، وأنا أتصور أنك لم تكن عاقلاً ، أى لم تكن حكيمًا موضوعياً مقدرًا ، وربما كنت مريضًا ، وربما كنت تستمتع بضغطك علىَّ ، أى نوع من السادية؟!

وربما تماديك كان بسبب شعور دفين بالنقص ، والذى كان علاجه الوحيد هو أن تضغط على إنسان ، وأن يتقبل هذا الإنسان ضغطك دون اعتراض ، أى أنه يخاف منك ويخشاك . . إنك كنت فى حاجة إلى أن يخشاك إنسان ، ولذا كان من الصعب عليك أن تكون عادلاً ومنصفًا ومنطقياً ، لأن هذا لم يكن ليرضيك وربما كان سيعمق إحساسك بالنقص ، ولذا فالرحمة عندك كانت ضعفًا والمودة مذلة والتسامح وهن والتنازل عن الرأى خيبة والاعتراف بوجود الآخر تخاذل!

وقد يصور لك غرورك أننى أريد أن أهرب ، أى أننى ضعيفة . .

وقد تتهمنى أننى لم أعد أحبك . . وقد يصور لك خيالك المريض أن هناك شخصًا آخر . . وقد يهديك أفقك المحدود إلى أنى

أريد أن أتخلى عن مسئولياتى . . ولكن الحقيقة يا عزيزى غير ذلك فأنا قوية وما زلت قوية، ما زلت أحتفظ لك ببعض المشاعر لأنك جزء من حياتى ولا يوجد شخص آخر فى حياتى ولا أريد أن أتخلى عن مسئولياتى، ولكننى أرحل لأنى كزوجة لم يصبح لدى ذرة عطاء لك . لن أستطيع أن أعطى لك أى شىء . . وحين تشعر الزوجة بذلك تجاه زوجها عليها أن ترحل، هكذا تفعل كل امرأة محترمة شريفة!

●●●

مدد من السماء

بعض الناس يصلهم مدد مباشر من الله يوجه خطواتهم ويقود مسيرتهم، وينير طريقهم، ويدفعهم دفعًا فى اتجاه معين صوب شىء معين؛ ليكشف لهم أمرًا مخيفًا لم يكونوا ببالغيه إلا بعون كاشف الأسرار ومبلغ الأخبار؛ لحكمة يقتضيها وفى ذلك يكون الخير كل الخير لهذا الإنسان حتى وإن لم يدرك أن هذا خير فى حينه، فيكون كارهًا ولكن: ﴿وَعَسَىٰ أَن تَكْرَهُوا شَيْئًا وَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ﴾ [البقرة: ٢١٦].

والمدد الذى يساعد على كشف الأسرار حتى وإن كانت مخفية فى قاع البحار فإنه أيضًا يلهمنا الصبر؛ ليتحمل الإنسان هول ما اكتشف واستبان له، فقد يحدث ألمًا ويذهل عقلًا ويفتت قلبًا ويشق صدرًا، وتظلم الدنيا فلا يعرف الإنسان ماذا سيفعل!

وكما أن الممدد يكشف الأسرار ويلهم الصبر فإنه يهدى إلى الفعل السليم. . وهذا الفعل السليم قد يناقض المعهود فعل البشر فى الأحوال العادية، وبالتالى يكون مختلفًا وغريبًا أو حتى شاذًا، ولكن لأنه من هدى الله ومدده فإنه يكون سديدًا وليس كل سديد بمألوف وليس كل مألوف بسديد!

وإذا ما أصبح البصر حديدًا والقلب رزينًا والعقل مستنيرًا،

فالفعل يكون مسئولاً عن حكمة بليغة وسداد في الرأى وسمو في السلوك.

وليس كل إنسان يصله هذا المدد المباشر من الله. ومثلما أن الهدية مشروطة ومربوطة بالمشيئة، فإن المدد مشروط ومربوط بصفاء النفس وسعة القلب ونقاء العقل من سوء الظن.

وهكذا كان صاحبنا بحق نفسه خالية من الضغائن والأحقاد. واسع القلب الذى تشبع بالرحمة وامتلأ بالتسامح، نقى العقل إلى حد الثقة بأن كل إنسان داخله طيب وإن بدا عكس ذلك من الخارج!

لقد تحلى هذا الرجل بالشروط الثلاثة التى تجعله مستحقاً للمدد الربانى الذى يكشف المستور ويثبت القلوب ويهدى إلى الرأى السديد ويسمو بالسلوك، وذلك دون اجتهاد يذكر وإنما هو وحى وإلهام.

فى ليلة دخل هو وزوجته إلى الفراش ليناما.. جاملها سلطان النوم فنامت هى فوراً. أما هو فظل مؤرقًا دون سبب مع أنه فى الأحوال العادية كان يسبقها هو فى النوم لشدة تعبه اليومى وتظل هى مؤرقة من بعده لأسباب ما. فى هذه الليلة بالذات جفاه النوم. فذهب إلى حيث تتراكم الكتب بغير نظام وانتزع دون تحديد كتابًا دون حتى أن يلتفت إلى عنوانه لعله يكون مملاً فيجبر النوم على الدنو منه. ورغم أن من عاداته قراءة الكتاب من الصفحة الأولى

فإنه فتح الكتاب بالقرب من منتصفه حتى لا يكون لقراءته أى معنى يثيره فيضاعف من يقظتـــه . لم يكـن جـادآ فى أن يقـرأ ليتعلـم أو يستمتع وإنما أراد أن يبعد عقله عن مصارعة النوم حتى يأتيه طائعًا . فتح الكتاب على صفحة لم يكن يقصدها فوجد ورقة مطوية تصور أنه هو الذى دسها يومًا ففتحها . .

تسـمرت عيناه عند الكلمة الأولى فى السطر الأول : حبيبى فتصور أنه أحد خطابات زوجته إليه فى العصر الملتهب فدفعته قوة هائلة إلى أن يقرأ ليستعيد ذكرى جميلة تذهب عنه بعض الاندهاش الذى يشعر به من جزاء فتورغير عادى من جانب زوجته بدأ منذ وقت غير قليل يزيد على العام . وفى منتصف الخطاب اكتشف أنه ليس المعنىَّ بهذه الكلمات لأن هناك إشارة لحوادث لم تقع بينهما . وحين مر بسرعة البرق على بقية كلمات الخطاب تيقن أن هذه مسَوَّدة خطاب تعده زوجته لترسله إلى رجل آخر .

كتبت الزوجة إلى الرجل الآخر تقول :

«أنت طاقة الحياة الوحيدة المفتوحة لى الآن تمدنى منها بالهواء ، وأنظر من خلالها لأطالع جمال الدنيا فهذا بحر وهذا نهر وذاك بستان وورود وتلك طيور محلقة وهذه شمس ساطعة وهذا قمر منير . . الحياة كل الحياة بعناصرها . لولاك لكانت حياتى قد استمرت صخورًا جرداء بلا لون وبلا رائحة . . الألوان والروائح دليل حياة تتجدد ، دليل نشاط وتفاعل ، دليل حركة ودون ذلك الموت . ولذا فالألوان تبهجنى والروائح تثيرنى .

وأنا حين أصف حياتى بأنها كانت صخوراً جرداء، فأنا أعنى أنها كانت صلبة وصعبة وجافة وعقيمة فهذه هى حال الصخر. أما أنت فقد جئت بالماء الذى يرطب الأرض ويلين له الصخر وينبت الزرع وينشر الروائح ويصبغ الألوان فتحوم الطيور من حول المكان وبذا يكتمل الخريف الذى يعزف ويغنى أنشودة الحياة.

ولذا فأنا شفيت من الآلام التى أنهكت جسمى وأحارت الأطباء، عادت الحيوية والنشاط، ملأنى السرور وتطايرت منى البهجة لتعدى من حولى وعدت أستسيغ الفن وأتشرب الجمال، بل أصحبت متقبلة لكل جمود حياتى داخل البيت. لقد أعاننى حبك على مزيد من التحمل وحصننى بالصبر وشد من أزرى.

تسألنى عن حياتى الشخصية فأقول لك إن زوجى رجل طيب. تزوجته منذ عشرة أعوام بعد انتهائه من الدكتوراه فى الخارج وعاد إلى الوطن ليعمل أستاذًا فى الجامعة.

زواج تقليدى رجل مناسب جداً لفتاة من أسرة طيبة أتمتع بجمال فائق، لم أكمل دراستى الجامعية وإن كنت أتمتع بكل الإمكانات الثقافية التى تفوق فى عمقها ما تعلمه خريجو الجامعات، وأكتشف أن زوجى على درجة عالية جداً من الثقافة من الصعب الدنو منها. كان معتداً بنفسه ولكن ليس إلى حد الغرور، متميزاً فى مهنته إلى أقصى درجة، مهابًا ومحترمًا اجتماعياً، ذا سعة مادية تسمح بحياة رغدة، يفرق بيننا خمسة عشر عامًا فى العمر ولكنها كانت بالنسبة

لى ألف سنة لاتزانه الشديد وحكمته البالغة وثقافته الرفيعة وجديته ليس إلى حد التشدد، ولكنها تجعل الحياة شبه متجهمة جافة ملولاً ذات لون واحد ونغمة واحدة ورائحة ثابتة، ثم تدريجيّاً زال عنها اللـون والنغمة والرائحـة، أى تجمدت فأصبحت ميتة لا توحى إلا بالكآبة كنت لا أفهمه حين يتكلم فى أمـور السياسة أو الثقافة أو العلم، كنت لا أفـتح فـمى حـتى لا أبدو بَلْهـاء، إذا كنا وسط جمـاعة وقد أمسك هو بناصـية الحديث، لـم يكن يدانيـه أحد فى طلاقتـه ولبـاقتـه، وانشـغل كـثيراً مـا بين عـمله الخـاص والعـمل الاجتماعى والعمل السياسى.

فلم أكن أراه إلا فى وقت الفراش متهـالكًا متهـاويًا يسقط على الفراش، وقد نام قبل أن يتمدد جسده.. نومًا هو أقرب إلى فقدان الوعى..

وكان شديد التدين ممسكًا على دينه فحرمنا من كثير من المتع شبه البريئة التى تناسب عمرى.

وأنجبت ابنة جميلة فباعدت بيننا أكثر لانشغالى بها ثم أعقبتها بالثانية وكانت أكثر جمالاً فأصبحنا نعيش كغريبين فى الدار، وربما كان من الممكـن أن أتفهـم انشغاله الشديد، وربما كان من الممكن أن أنجح فى الاستمتاع بالحياة الأسرية، ولكن ما كان يوقفنى هو جفافه، وجديته، وصرامته، وعدم تمتعه بروح الفكاهة، وعدم رغبته فى التنازل ليحب ما أحبه وما تحبه كل امرأة فى مثل عمرى،

حتى ممارسة الحب كانت تأخذ طابعًا شبه رسمى أى كأننا نؤدى واجبًا مفروضًا . هذا بالإضافة إلى الهوة العلمية والثقافية بيننا . ولهذا انطويت ورضيت لأنه على الجانب الآخر كان رجلاً طيبًا ومخلصًا وكريمًا فى حدود الضروريات والأشياء التى لها قيمة حقيقية، وليس كريمًا بالمعنى الذى أحبه وهو شراء الأشياء التى تعجبنى مثل كل امرأة .

لم ألتفت إلى أى رجل آخر فهكذا تعلمت من أمى التى غرست فينا خشية الله . وجاء اليوم الذى قابلتك فيه فوجدت أننى أقف أمام إنسان يجسد المعنى الحقيقى المتكامل للحياة . . والحياة التى أحبها بالذات، وأول ما شدنى إليك بساطتك فى كل شىء . . فى الحديث والملبس ثم تلقائيتك وأنت تتكلم وأنت تضحك مع مرحك وأنت تلعب وأنت تلهو بما يتناسب مع عمرك الذى يقارب عمرى . ثم شدنى إليك أيضًا حيويتك ونشاطك، ثم عشقك للحياة وتفاؤلك . ثم فى النهاية لغتك السهلة والمفهومة . ويأتى أخيرًا إعجابك الشديد بى . . أحببت كلمتك التى تصف بها جمالى . . أحببت ملابسى التى أعجبتك، أنوثتى التى شدتك . . أحببت مقاطع الأغنيات التى كنت تتغنى بها، وترسلها لى كرسائل حب، أحببت نكاتك التى كانت تضحكنى من قلبى، أحببت وأحببت كل شىء منك . . وأحببت كل شىء ينتسب إليك .

ورغم أننى أتوق إليك وأحترق اشتياقًا فإننى لا أستطيع أن أقترب أكثر من ذلك . إن سعادتى وأنا أمسك بيديك هى أقصى طموحى، وأقصى ما أقدر عليه . إن يدى هما ملكك وغير ذلك

ليس ممكنًا. شيء ما بداخلي يمنعني، يوقفني، شيء ما رسخ في داخلي منذ طفولتي ألا أهب جسدي إلا لرجل واحد هو زوجي. ولكن قلبي لا حيلة لي فيه. لم أستطع أن أسيطر عليه مثل طائر خرج لتوه من سجنه فانطلق بجنون. إن قلبي مجنون بك وجسدي يحترق إليك.. ولكن لا.. لا أستطيع.. اعذرني وسامحني.. وإلى لقاء قريب يا فرحة عمري القادم».

طوى الزوج الخطاب وأودعه مكانه من الكتاب، وحرص على أن يكون في نفس المكان ثم وضع الكتاب من حيث أتى به. ولا يستطيع أحد مهما أوتي من قدرة على التصوير والتخيل والتغلغل في النفس أن يصف حالة الزوج في اللحظات التي أعقبت قراءته للخطاب. وهل تختلف حال رجل عن رجل آخر في مثل هذه الأحوال؟

هل من الممكن أن يستجيب رجل بطريقة مختلفة عن رجل آخر في مثل هذا الموقف؟ وقبل أن نتعرف على سلوكه المتوقع فلنقض بعض الوقت لفحص مشاعره وأفكاره، هذا الرجل بالذات، هذا الرجل المتعلم المثقف المتدين الملتزم الجاد المحترم المحب لزوجته المخلص لها. العاشق لابنتيه. الحريص على تنشئتهما تنشئة صالحة أساسها تقوى الله وخشيته.

ليشعر هذا الرجل الآن بالحزن؟ وأي درجة من درجات الحزن؟ والحزن على أي شيء؟ أم هو نوع من الأسى مثلما يفقد الإنسان عزيزًا عن طريق الموت؟ أم أنه غاضب وثائر وحانق؟ أم مزيج من

الحزن والغضب؟ يجب ألا نغفل التأمل الدقيق والفحص المتأنى لأعماق هذ الرجل فى هذه اللحظات بالذات. إنها فرصة نادرة للتعرف على مشاعر إنسان صدم بشكل مفاجئ وغير متوقع فى إخلاص زوجته. لا ننسى الثقة المطلقة فى الزوجة. لا ننسى أن عقله قبل قراءة الخطاب كان لا يردُ عليه واحد على مليون من فكرة أن زوجته قد تميل إلى شخص آخر. . لا ننسى إحساس هذا الرجل بذاته وكبريائه. . لا ننسى تدينه. . لا ننسى ابنتيه. . لا ننسى أن الزوجة لم ترتكب الفاحشة بَعْدُ بل ترفضها. ولا ننسى امتداحها لزوجها فى أشياء معينة. . لا ننسى وصفها لحياتها الجافة والصعبة مع هذا الزوج. فهل يا ترى سيلوم نفسه ويعتبر نفسه أنه مسئول عما حدث، وربما يخفف ذلك من حدة غضبه وإن لم يمنعه من الحزن؟

واضح أن عوامل كثيرة ستتداخل لتحدد مشاعر هذا الرجل الذى نزلت عليه الصاعقة دون إنذار. . أرق. . فذهب إلى المكتبة. . فانتزع كتابًا بطريقة عشوائية بحتة. . ثم يفتحه بدون قصد على صفحة معينة ليجد هذا الخطاب. . أى حظ؟! بل أى ترتيب؟! وترتيب من؟! أهو ترتيب الله؟!. . وهنا لمع ضوء جديد فى رأسه. . إذن لقد دُفعت دفعًا إلى هذا الخطاب!! إذن كان هناك قصد أن أقرأ هذا الكتاب!! أى حكمة فى ذلك؟! هل هناك هدف؟!

ثم أضاء مصباح آخر فى قلبه. . هل أراد اللهأن يدفعنى فى الوقت المناسب لعمل شىء أنقذ به أسرتى؟ وأى عمل يصلح فى هذاالوقت إلا الطلاق؟! ولماذا الطلاق؟ أى خطأ ارتكبت؟ مالت إلى رجل

آخر!! ومن المسئول؟ بل هى المسئولة.. كان لا بد أن تسيطر على مشاعرها وأن تخاف الله، ولماذا لم تخف أنت وقد هجرتها تمامًا إلى عملك ومجدك؟! لماذا لا تخاف الله وقد كنت جافاً جامداً كالصخر؟! وظل يسأل نفسه عشرات الأسئلة وقد انصرف عقله إلى تحليل الموقف آخذًا إياه بعيداً عن مشاعره والتى لم نتعرف عليه حتى هذه اللحظة ربما أراد الله أن يصرفه عن المشاعر وجعله يفكر فى الإجـــراء السـليم يا ألله!! وهل من إجراء إلا الطلاق؟ وأين تذهب الابنتان؟ وهذه السيدة لم تخطئ حتى الآن فلماذا أدفعها إلى الخطأ الأكبر، وأى خطأ أكبر.. إن الخطأ هو الخطأ!! لا ليس كل الأخطاء واحدة . هكذا كـان يرى الأنبياء فى تعاملهم مع مثل هذه المواقف.. كانوا يتحرون هل وقع الخطأ الأكبر أم لا.. لكل درجة من درجات الخطأ عقابها وإذا كان الخطأ هينًا فمن الممكن التدخل للحماية.

استيقظت الزوجة من نومها فوجدته مستيقظًا فاندهشت وسألته عن حاله فأخبرها أنه بخير، قبَّل طفليه ثم قبَّل زوجته لأول مرة وخرج إلى عمله. ولكن ظل يمشى ويتطلع إلى الناس. لم يشأ أن يجلس فى أى مكان بل ظل يمشى ويمشى وبعد انتصاف النهار بثلاث ساعات وجد الناس وبخاصة الرجال يتسابقون للعودة إلى بيوتهم ولم يكن قد تعود العودة إلى بيته فى هذا الوقت. وسأل نفسه: لماذا يتشوق الرجال للعودة إلى بيوتهم عصراً؟! فأجاب: ليأكلوا مع زوجاتهم وأبنائهم وينامو، وماذا بعد أن يستيقظوا من نومهم؟

فأجاب: يعودون للعمل ثم يعودون مرة ثانية إلى بيوتهم. . ولماذا العودة المبكرة إلى البيت وكنت قد اعتدت العودة بعد منتصف الليل؟ فأجاب: لأن الزوجات يشتقن إلى أزواجهن ليلاً.

ابتسم داخله وقرر العودة إلى البيت اشترى زهوراً، وفوجئت الزوجة والبنتان بأنه تغدى معهن وسط مزيج من الدهشة والسرور والحذر. وفى المساء عاد مبكراً أكل معهن ولم ينم، داعب الأطفال ولاطف الزوجة وشاهد معهن فيلمًا. ويجب أن نتوقع أنه فى هذه الليلة نام مع زوجته وفى الليل حزم أمره. خطط للسفر للعمل فى دولة أخرى لبضع سنين. أطلع زوجته على خطته فى الصباح فوجئ بموافقتها وهى فرحة متحمسة. . فى غضون أسابيع قليلة أنهى كل الإجراءات وطار إلى بلد جديد ليبدأ حياة جديدة كرجل جديد مع زوجة جديدة. ولم ينس أبدًا المدد الذى جاءه من السماء، والذى اختصه به الله ليعينه على تضميد حياته!

●●●

امرأة تصادق رجلا

أحمق من يجز . . وأكثر حمقًا من يدعى أنه وصل إلى الحقيقة المطلقة . وأى حقيقة فى عالم يزخر ببلايين البشر عاشوا وماتوا ويعيش من بعدهم غيرهم من كل لون وشكل ولغة؟! قوم من بعد قوم، وعصر من بعد عصر . لا شىء يثبت على حال وكل شىء متغير وكل شىء إلى زوال . وإذا كنا نتذكر ما حدث من ألف عام فمن ذا الذى يستطيع أن يتذكر الذى حدث من مائة ألف عام؟ وكيف كان الإنسان وقتها إذا كان قد خُلق إنسان وقتها كيف فكر وكيف أدرك وكيف شعر؟ أى عاطفة وأى إحساس!! أى شكل للحياة!!

الحقيقة متغيرة . الحقيقة كانت حقيقة فى وقتها، الحقيقة هى ما تراه وما تشعر به الآن . الحقيقة لا تُعَمَّر ولا تستمر بل تحل معها حقيقة أخرى . ولهذا فهى لا تسمى حقيقة . الحقيقى هو ما كان مستمراً، والحق له صفة الدوام . والحقيقة هى ما كانت ثابتة لا تتغير، الموت حقيقة والشمس حقيقة والقمر حقيقة لأنى أعرفها منذ وعيت الحياة . . ليس من الضرورى أن نفهم فهمًا كاملاً . ومن يستطيع أن يدعى أنه يفهم كل شىء؟ بل الحقائق الثابتة هى تلك التى تستعصى على الفهم . هى تلك المحاصرة بالأسرار ومغلفة بالغموض لنرى جانبًا واحدًا فقط دون أن نعرف الأسباب ودون أن نعرف المصير .

هناك حقائق مجهولة الأسباب والمصير، وما علينا إلا أن نتقبل. وعلينا أن نروض العقل أن يقبل ولا يسأل. يكفيك الثبات والدوام والتكـرار اللانهائـى. وحدودك هى منذ وعيت الشىء على حاله أو ربما من قبل ذلك منذ توافرت لك أخبار السلف. وتصبح حينئذ حقيقة منقولة تعتمد فقط على السمع. وليس الذى يسمع مثل الذى يرى. والحكماء قالوا لا تصدق إلا ما تراه عيناك. وآخرون قالوا إن ما تراه هو كل الحقيقة وما تسمعه هو نصف الحقيقة.

فـما تسمـعـه إنما يتلوث برؤية الراوى، ولذلك فـالعـهـدة على الراوى وذمته.. وربما هى ليست قضية ذمة وإنما هى قضية إدراك الراوى الشىء بطريقته.. وطريقته تعنى ميوله وهواه وتحيزه وعقده ومشاكله النفسية الكامنة فى عقله الباطن. كل ذلك يلون الحقائق فينقلها إلينا كما يراها هو أو كما يريدها هو.. ولذا لم يخلق الله لونًا واحدًا ولم يجعل الاستنساخ وسيلته لخلق البشر.. إنما كل إنسـان مختلف.. وهـذا هـو المعنـى الأعمق للحرية، حرية أن تختلف.

حـرية أن تكون أنت كـمـا أنت.. حـرية أن تقـول أنا.. وحين تقـول أنا تقـولـها بملء فـمك وتعنى بهـا أنك المتـفـرد.. أنك الذات المستقلة الخاصة، وأن لك الحق فى أن ترى ما ترى وأن ما تستنبطه إما من وحى إلهامك أو من وحى اجتهـادك. ولك الحـق حينئـذ أن تقول: أنا أرى.. أنا أعتقد.. أنا أجزم، أنا أؤكد.. إلا إذا كنت تتحـدث عن الموت، وفى هذه الحالة يكون لك الحق فقط أن تقـول

إن هناك موتًا أو تقول إن الشمس تأتى من المشرق وإن القمر يبزغ كل مساء . . فيما عدا ذلك ليس لك الحق أن تجزم بشىء . . وتذكر أن من يجزم فهو أحمق . . وأكثر حمقًا من يدعى أنه وصل إلى الحقيقة المطلقة . أنا حين أحكى قصتى اليوم فأنا لا أجزم وإنما أحكى ما أشعر وأقول ما أحس وأسرد ما أرى . أقرأ ما أظن أنه يمكن أن يكون حقيقة . وقد يختلف معى كثيرون، وقد يثبت عكس ما أرى وما أقول . . ولكن هكذا أنا . . أنا كما أنا، أنا التى تختلف عن أنت .

أنا أعتقد فى الصداقة بين المرأة والرجل . . وأنا امرأة أحتاج إلى أن يكون لى صديق رجل . . أبى كان صديقى ولكنه مات . . أخى كان صديقى . . ولكنه هاجر . . حاولت أن يكون لى صديق رجل فعجزت . . فشلت .

أبى كان صديقى . لم يكن أبى إلا حين أمرض، هنا يظهر عليه جزع الآباء . . فيما عدا ذلك كانت تتشابك يدنا فى أثناء المشى، ويختلف عقلانا فى أثناء الحوار، وتتباين مشاعرنا إزاء موقف أو حدث . كان يأتنس بى وكنت أأتنس به . . راحة عميقة تشملنا معًا حين نكون معًا . . وحين أوجد معه أشعر بذاتى المستقلة . . أشعر بكيانى المتفرد . . أكون على حقيقتى . . أكون نفسى . . أكون فى أصدق حالاتى . أسأل وأسأل أحكى وأحكى . . عراك بالأفكار يعقبه مصالحة أو لا يعقبه . . وإذا اختلفنا فالاحترام يفرض وجوده فيجعل كلاً منَّا لا يجزم بأن رأى الطرف الآخر خطأ مطلق، ولكنه خطأ قد يتأكد صحته فيما بعد، وأن رأيى أنا الذى أعتقد أنه صواب

قد يثبت خطؤه فى الغد، ولقد تعلمت منه الكثير، وكان يقسم أنه يتعلم منى. ولقد اكتشفت معه أن الشىء الوحيد الذى يعطيك الأمان من خلال إنسان آخر هو أن تتمتع معه بحرية أن تفكر وأن تفصح عن أفكارك دون خوف.

هكذا يكشف عن حكمة الطرف الآخر وعن رحابة فكره وسلامة مفاهيمه. لقد علمنى كيف أسبح وبعدها أخذنا نسبح معًا ونستبق ولا يغضب إذا سبقته بل كان يتيح لى فرصة الانتصار فى معارك فكرية نختلف حولها. لم يكن مضمون الفكرة هو المهم بالدرجة الأولى، ولكن كان أسلوب معالجة الفكرة هو الأهم أو أهم الأهم..

ولذا منحنى أبى الحرية الكاملة فكنت أحلق بعقلى فى الاتجاهات الأربعة كيف أشاء وكنت أدب بقدمى فى كل مكان لا يحمينى من السقوط فى حفرة إلا نصيحة تقول فليكن قصدك مخلصًا وهدفك معلنًا وتوجهك للخير ومسعاك للحق وعشقك للمعرفة ولا تنظرى تحت قدميك فقط، ولكن تطلعى إلى الأمام فالحذر هو وليد التوقع والتنبؤ.. لم يعطنى خريطة فالخريطة تحد من الحرية لأنها تحدد الطريق، ولكنه أعطانى من حكمته وتركنى لأمضى وحدى.

ومثلما علمنى سباحة العقل علمنى أيضًا سباحة القلب حتى أجدت هذا النوع الصعب من السباحة، والتى تكسبك شيئًا خطيراً وهو التوازن وعدم التمادى والشطط، تعلمت كيف أضبط درجة

الحرية فلا أسخن عواطفى إلى حد الاشتعال ولا أبردها إلى حد التجمد.

والتوازن معناه أيضًا أن تكون ردود فعلى الوجدانية ملائمة للأحداث والوقائع المحيطة، فلا أثور إلى حد التدمير ولا أغضب إلى حد العداوة ولا أحتد إلى حد الاعتداء اللفظى غير اللائق الذى يقود إلى خصومة.

لقد أحببت أبى ولكنه مات فجأة ففقدت الصديق.. وكنت تخرجت من الجامعة متفوقة.. وأخذت طريق العلم أبحاثًا ودرجات علمية فاستغرقنى إلى الحد الذى لم يدعنى ألتفت إلى أحد من حولى.. ولكن حنينى للصديق يجعلنى أقترب من شقيقى أكثر وأكثر.. ورث عن أبيه سعة العقل وسعة القلب.. وكان أكثر ما يسعدنى هو أن نلتقى فى نهاية اليوم ومع بداية الليل لنتكلم.. نتكلم ونتكلم ونتكلم ولا نكف عن الكلام إلا بعد أن يشعر كل منا بالإشباع الكامل، وكأنك تتناول وجبة دسمة ومتنوعة ولذيذة بعد طول جوع!

وضاقت الحياة بشقيقى فى بلدته لأنه لم تسع طموحه فهاجر.. فتلقيت الطعنة الثانية التى أصابت قلبى وعقلى فى آن واحد.. وفقدت صديقى الثانى وعشت وحيدة بين كتبى ومعملى وقد تعدى العمر الخامسة والثلاثين دون أن أفكر فى الزواج أو أسعى إليه أو يسعى إلىَّ أحد، لأن فى بلدى، لا يميلون إلى المرأة

التى أحبت العلم وأخلصت له . . إما الإخلاص لرجل أو الإخلاص لعلم! . . لا يمكن الجمع بين الرجل والعلم. إنهما لا يجتمعان. مَن أحبت العلم فعليها أن تضحى بالرجل، ومَن أحبت الرجل فعليها أن تضحى بالعلم، ولم تكن هذه هى الحقيقة فقد كنت أتمنى أن أكون زوجة وأمّاً. . أن يكون فى حياتى رجل يأخذ موقع الزوج ولكى يكون صديقى. . كان شرطى الوحيد أن يكون زوجى صديقى. . ولذا كان لابد أن تكون هناك فى البداية مؤشرات وشواهد وأدلة تُطمئن إلى إمكانية صداقة الزوج مثلما نعمت بصداقة الأب والشقيق.

حين وصلت إلى الخامسة والثلاثين تنبهت فنظرت حولى كان الرجال الذين يقتربون من عمرى قد تزوجوا. ومن هم دون ذلك كانوا تلاميذى. وأدركت أننى فى مأزق، وما كان يلح علىَّ ليس هو الاحتياج إلى زوج بقدر احتياجى لصديق.

واختصاراً لعامين آخرين من القلق والاشتياق أقول إن زميلاً قد عاد من إعارة استغرقت عشر سنوات. . تركنا وهو دون الثلاثين وعاد وهو يقترب من الأربعين زوج وأب لثلاث بنات يتدرجن ما بين الخامسة والعاشرة. . قبل سفره كان بيننا تعاون علمى أتيح لنا استئنافه بعد عودته.

ومن حديث العلم انتقلنا إلى حديث الفلسفة، فى البداية فلسفة العلم ثم فلسفة الحياة، ثم علاقة الفن بالعلم ثم مشكلة الإنسان. .

وقررنا معًا أن مشكلة الإنسان المعاصر هى عزلته الفكرية بسبب القيود التى أفقدته حريته . . ولمزيد من الاختصار أقول إنه حل محل والدى وشقيقى فأصبحنا نتكلم ونتكلم ونتكلم . وكان هذا الكلام بالطبع يستغرق ساعات وساعات . . ولأن الناس اعتادوا على أنه إذا اجتمع رجل وامرأة فلابد أن يكون الشيطان ثالثهما . . فإن الهمسات غير الطيبة سيئة الظن تناثرت من حولنا ووصل بعض هذا الرذاذ السام إلى زوجته وكانت متعلمة ومعتومة الثقافة . . حادة الطباع . . شديدة البطش . . إذا اقترب أحد من عرينها قفزت فى وجهه بكل أظافرها وأدمته .

مصيبتى وأقول إنها مصيبة أن أحدًا لم يصدق، أن ما بينى وبين زميلى ما هو إلا صداقة، فمعظمهم جزم بأنه لا وجد صداقة بين رجل وامرأة . . وبعضهم جزم بأنها إن وجدت لحين فسوف تتحول إلى حب . . وأما سيئو الظن فقد أكدوا أن صداقة الرجل والمرأة تتخذ ستارًا لعلاقة غير شرعية .

طاردتنى الزوجة فى كل مكان . . أساءت إلى سمعتى . . انتهزها فرصة المنافسون من الزملاء والزميلات وبخاصة الزميلات للنيل منه ومنى . . كان الإعصار أقوى من قدرتنا على التحمل فقررنا أن نبتعد، قررنا ألا نتكلم، قررنا حرمان نفسينا من لحظات السعادة والإشباع والإرضاء والهناء التى كنا ننعم بها علنًا وليس خلسة .

وأراد صديقى أن تكون لقاءاتنا بعيدة عن أعين الناس فرفضت . بدأ يحادثنى همسًا عبر التليفون فرفضت الصوت الخفيض الخائف . . أنا زميلة ولست حبيبة . . أنا صديقة ولست عشيقة . . وأنا أحب صداقة الرجل مثلما أحب صداقة المرأة . . صداقة الرجل هى تعويضى عن صداقة الأب وصداقة الشقيق . . أما الصديقة فهى أم أخرى وصديقة أخرى . . الرجل ممكن أن يوجد فى حياة المرأة بأدواره المختلفة . . والحبيب غير الصديق . . الحبيب ملكية خاصة . . أما الصديق فملكية عامة . . الحديث مع الحبيب قد يكون همسًا . . أما الحديث مع الصديق فيكون جهارًا . . اللقاء مع الحبيب قد يكون فى أماكن خاصة لأسباب خاصة . أما اللقاء مع الصديق فيكون فى أماكن عامة . . وحنينى للصديق غير حنينى للحبيب . . الحنين للحبيب يشمل أشياء أخرى لا توجد فى الحنين للصديق .

كنت واضحة وضوح الشمس . . وكنت صادقة صدق الرسل . . وكنت نقية نقاء الملائكة . . وكان جسدى بريئًا من أى ميل . . وكانت خططى نظيفة من أى مشاريع أبعد من حدود الصداقة .

وزاد بى الألم للفراغ المخيف الذى عشت فيه بعد أن اخترت العزلة ورفضت كل محاولات للقاء . . وجاءتنى فكرة أن ألتقى بزوجته وأوضح لها الحقيقة، ظنت أننى أحاول خداعها، برزت عدوانيتها بحق الدفاع عن النفس وأن استخدام الأسلحة السامة يكون مشروعًا فى مثل هذه الحالات . . سخرت من مفاهيمى عن

صداقة الرجل والمرأة . . جرحتنى بظنها أننى مدلهفة على زوج لفوات قطار الزواج . . أجهزت على كرامتى بيقينها عن علاقة جنسية بينى وبين زوجها . . وفى النهاية طلبت منى الابتعاد عن زوجها وحذرتنى من أى محاولة خفية للاقتراب وتوعدتنى بالتدمير ثم طردتنى . أين الحقيقة؟ ألا يريد أحد الاعتراف بصداقة الرجل والمرأة . . هل يعنى هذا الإجماع أن هذه هى الحقيقة . . ولماذا لا أكون أنا على حق وهم جميعًا على باطل؟!

لقد ضاعت الحدود والفواصل بين الكذب، والصدق . . بين الأصيل والزائف . . بين الحق والباطل . . فلا تستطيع أن تتعرف على نقطة البداية لتفرقها من نقطة النهاية . إنه تشويش على القلب . إنها غلبة الأنانية والهوى والأحقاد والغيرة . إنه اندحار للهدى الذى يقود عقل الإنسان ويلهم ضميره . . إنه الجهل والجهالة والضلالة . إن ضياع الحدود أضاع الإنسان مثلما أنا ضعت! . أين أنت يا أبى؟!

●●●

امرأة طموح

إذا لم يتسع الإنسان إلى أبعد من حدود الأرض ضاقت الأرض به، وإذا لم يتسع قلب الإنسان إلى ما هو أبعد من حدود السماء تراجعت خشيته وزاد جبروته، فالإنسان محدود الحواس من سمع وبصر وشم، لكن عوضه الخالق عن هذه المحدودية بلا محدودية عقله وقلبه، ولا محدودية عقله تجعله سيد الأرض، ولا محدودية قلبه تجعله أخشع المخلوقات!

ومن خشوعه تنضج الرقة والرحمة والشفقة والتواضع، ينثر المودة فيحصد حبّاً، وينشر الحب فيرتد إليه أمنًا وسلامًا، ولا تصح لا محدودية العقل بدون لا محدودية القلب، وإلا فقد العقل القدرة على البحث عن الحقيقة التى تزيده خشوعًا فيطغى، ولا تصح لا محدودية قلب بدون لا محدودية عقل، وإلا فقدت القلوب البصيرة التى تلهمها وتوجهها فتضل وتهوى، فالعقل نور القلب، والقلب نور العقل!

والإنسان المحدود يقبع حيث يكون لينتظر ما يأتيه ولا يسعى إليه، يرضى بما عنده ولا يطمح إلى مزيد، ليعيش لحظته ولا يقلق على غده. دائرة اهتمامه لا تمتد إلى أبعد مما ترى عيناه، وتسمع أذناه، وحين يغادر الحياة لا يكون قد ترك أى أثر خلفه.

أما الإنسان الطموح اللامحدود فيشب برأسه ويسترق السمع ويمعن النظر ويمده إلى بعيد مترقبًا ومتنبئًا يكمل النواقص من خياله، فيتصور ما هو ليس بموجود فيوجده، يتمنى أكثر مما هو متاح، فيحصل عليه، يخرق الواقع ليطل على المستقبل فيرى ما لا نراه، آمالاً وخيالاً بعد أن كانت حلمًا، ثم يحولها إلى حقيقة واقعة يهديها إلى المستقبل. ولا توجد درجات إلى الطموح، فلا يقال مثلاً طموح متوسط أو طموح محدود، أو طموح بلا حدود، فالطموح هو الطموح، الطموح متجدد، كلما وصلت إلى نقطة فإنك تسعى إلى ما هو أبعد منها ولا تقول كفى حتى إذا لم تكن تملك إمكانات تحقيق هذا الطموح، وفى هذه الحالة تظل عند منطقة الحلم بأن ما تحلم به يتحقق، والحلم هو الذى يمنحك الرغبة فى الحياة والاستمرارية ويهبك الحماسة، ويدفعك إلى السعى ويجعل للحياة طعمًا وقيمة.

لكن الفرق بين طموح وطموح هو فى درجة مساندة القلب، وأيضًا فى حدود اتساع دائرة القلب، أى فى درجة لا محدوديته.

فهناك طموح بقلب، وطموح بلا قلب، وهناك طموح لامحدودى للقلب، وطموح له درجة فى هذه اللامحدودية، ودور القلب ليس فى تحديد درجة الطموح وحدوده وإنما فى تحديد مضمون الطموح، فالطموح فى حد ذاته نشاط عقلى بحت يتسم بالتجريد ويتعلق بالهدف وليس الوسيلة، فيحلم الإنسان بأن يكون الأنجح أو الأقوى أو الأعظم أو الأجمل، أو الأكثر علمًا أو ثقافة أو ثراء، أو أن يكون الأشهر، ولكن فى أى شىء؟!

وما الوسيلة؟! فهذا هو نشاط القلب، وذلك النشاط النورانى الذى يهدف إلى طريق معين وبوسائل معينة ملتزمًا بكل المبادئ الممكنة سواء التى نزلت علينا من السماء أو تلك التى اخترعها الإنسان، فقد يسرق أحد ليكون ثرياً فى المال. إذن هو اختار المال فى بند الثراء.

أى انتقل من التجريد إلى التخصيص، واختار السرقة كوسيلة لتحقيق الطموح، وقد يطمح إنسان آخر لثراء المال ولكن عن طريق العمل الجاد. وقد يطمح إنسان آخر للثراء فى العلاقات الإنسانية (وليس المال) فيلجأ إلى مساعدة الناس وحبهم لينمي شبكة علاقاته الإنسانية التى يطمح إليها ويتمناها. وقد يطمح الإنسان أن يكون مشهورًا، ولكن فى أى مجال وبأى وسيلة؟! فهذا هو عمل القلب، والقلب المحدود هنا يخذل صاحبه فيجعله يختار مثلاً المال عن طريق السرقة، والقلب غير المحدود يجعله يختار ثراء العلاقات الإنسانية عن طريق الحب.

أنت وعقلك وأنت وقلبك، وهذا هو حظك فى الحياة، قد يكون حظّاً عظيمًا وقد يكون حظّاً تعيسًا، وذلك ببساطة شديدة جداً يتوقف على ما إذا كنت تبحث عن الزينة أم الباقيات الصالحات.

وهذه القصة بطلتها امرأة طموح، اتسع لديها بشدة طموح العقل وانحصر لديها بشدة طموح القلب وتراجع إلى حد الضمور

الكامل، لذلك ظل المضمون مجردًا لمدة طويلة .كان طموحها أن تكون شهيرة وثرية . . أما كيف تكون شهيرة .هذا ليس مهمّاً، وكيف تكون ثرية فهذا ليس مهمّاً أيضًا . المهم أن تحقق غايتها، وعليها أن تجد الوسيلة، أى وسيلة، والإنسان الذى يستبد به حلمه ويطغى على نومه ويقظته يصيبه نوع من الهوس فيظل قلقًا مؤرقًا مهمومًا مشغولاً بالبحث عن الوسيلة وإن كان يقابلها التضحية بالغالى والثمين من قيم ومبادئ ومُثُل، مناضلاً ومتحديًا ومكتسحًا للحدود والقواعد والأسس أو ما يسمى بالتقاليد والعادات والأصول، المهم هو الوصول والموت دونه، خاصة إذا كانت الغاية براقة تخطف الأبصار وتذهل الألباب وتدغدغ الشهوات .

ولا شىء يفعل ذلك بالإنسان إلا طموح لشهرة والمال، ولكن ليس أى إنسان وإنما إنسان له قلب محدود ،تضيق لديه مساحة العواطف وينعدم عنده وزن الضمير وتعلو لديه إلى الحد الأقصى سيطرة الغرائز .

فهو إنسان جائع لا يشبع، عطش لا يروى، لديه شعور بضآلة الذات وضعف الكيان ومحدودية المكانة و نعدام التأثير، فأصابه شره للشهرة ليعلو فوق الناس وتشخص إليه الأبصار وتلتوى الأعناق التفاتًا إليه!

هكذا كانت صاحبتنا، سيدة صغيرة دون الثلاثين جميلة وشاعرة تمتلك سحرًا يشع من عينها و،ن طريقتها فى إخراج

الكلمات عبر شفتيها الرقيقتين الحالمتين فيأتى صوتها منغمًا ومتقطعًا بطريقة مختلفة عن بقية الناس يكاد يميزها هى وحدها، وابتسامة تشى بالبراءة لمن ليس لديه خبرة بالنساء. أما الخبير فيلتقط من هذه الابتسامة إيحاء ما يختلف حسب الموقف أو حسبما تهدف هى خاصة فى مجال تعاملها مع الرجال ذوى الثراء وذوى السلطة، وكان عشقها للمال فسعت إليه أولاً أو ربما هداها عقلها الشيطانى إلى أن الشهرة سوف تجلب لها المال.

فسعت إلى كبار القوم للتعرف بهم، تقبلها الرجال بقبول حسن لما كانت توحى به ابتساماتها من إعجاب وانبهار ودعوات غامضة لأمر ما تفصح عنه بالكامل فيحار الرجل منهم ولا يتورع عن المحاولة ليجرب حظه، وكانت هى من الذكاء بحيث لا تروى الغليل وإنما تمد الحبال وتخلق الأعذار وتفتعل الأحداث دون أن تكشف عن الأسرار، ومؤجلة إياها للقاء قادم تمامًا مثلما كانت تفعل شهر زاد!

وهذه هى لعبة المرأة الذكية التى يكون لها مآرب أخرى غير الحب والجنس للتأثير على الرجال الذين يملكون تحقيق أحلامها، مجرد وعود، ولكن لا شىء يتحقق، ولهذا يظل الرجال فى حالة شوق دائم ومتجدد والأمل يحيى القلوب، ولهذا يجزلون لها العطاء. اقتربت من أن تكون نجمة فى اللقاءات العامة، تعرفت على الكثيرين.. رجال سياسة ورجال أعمال ورجال سلطة، لم تكن ترحب بها السيدات!

كانت تصحب زوجها خلفها، كان هو أيضًا لديه أحلام من الصعب أن تتحقق لضعف إمكاناته، لكنها بذكائها داعبت خياله بأن امتدحت قدراته وأعلت من شأنه، ثم وعدته بأنه من خلال علاقتها ستجيء الفرص حتى قدميه، فظل يتبعها أينما ذهبت. وكانت تقدمه للرجال المرموقين الذين تتعرف إليهم، وفهموا هم أيضًا طبيعة مشكلته فظلوا يعدونه دون تحقق شيء فهو معدوم الموهبة، وما أقسى الأحلام دون موهبة!

هنا يضعف الإنسان إلى حد تصديق اللامعقول ولو كان في صورة مزاح وسخرية، كانت النكات تدور حواه دون أن يدرى أنه هو المقصود بها.. وكانت النظرات يتم تبادلها مع زوجته دون أن يفهم لها معنى أو دون حتى أن يراها أو في الحقيقة هو لا يريد أن يراها، لأنه من خلال هذه النظرات وهي نظرات اشتهاء الرجال لزوجته سيقترب أكثر من حلمه. أما هي فقد قطعت خطوات لا بأس بها في طريق الشهرة.. ثبتت قدميها في مجالات معينة، أصبح اسمها يكتب بحروف أكبر. أما هو -أي الزوج- فظل في مكانه بل ربما تقهقر لأنه أهمل عمله الأساسي في انتظار الوعد الأكبر بالشهرة والمال، وكسبت هي بفضل جمالها وبفضل موهبتها مالاً أكثر منه فزادت سيطرتها وزاد خضوعه، وهنا ظهر بوضوح جبروتها وعنفوانها، فكان إذا اعترض على أي شيء هددته بالطلاق فيتراجع بأدب ويستسمحها ويطلب منها الغفران فتعفو عنه شريطة ألا يعود إلى فعلته!

كان قوياً فضعف، وكان أكثر مالاً فافتقر. كان القائد فتحول إلى عبد. وتشهد الأيام السابقة على خروجها للحياة العامة قسوته وعنفه معها، كانت تتكوم تحت هول ضرباته، كانت تجثو على ركبتها طلبًا لغفرانه، لم تكن تنطق فى حضرته، لم تكن تجرؤ أن ترفع عينيها إلى رجل وإلا بطش بها، كانت مشكلته الشك، ووصل الأمر إلى اتهامها بالفاحشة دون ذنب حقيقى.

ولعلها اكتشفت هى أنه مريض وضعيف من الداخل، ولعلها أدركت بسهولة محدودية موهبته ولعلها أيضًا شعرت بتحرقه للشهرة والمال، ولعلها -وهذا هو الأهم- توصلت إلى هذا النوع من الرجال الذى من الممكن السيطرة عليه تمامًا بمداعبة أحلامه ومغازلة رغباته، وأنه على استعداد للتنازل عن أشياء كثيرة فى سبيل الوصول إلى أهدافه حتى ولو كان ذلك على حساب مقدساته التى ارتبط بها طوال حياته، والتى نالت من أجلها كثيرًا من الضرب والعديد من الكدمات، وربما الكسور أحيانًا. عرفت هذه المرأة بذكائها العام وذكائها الأنثوى وحسها الشيطانى أن الرجل الذى يضرب امرأة ويسبها هو من أضعف الرجال، وأن الرجل الذى يشك فى امرأته الشريفة هو من أنقص وأمرض الرجال، فوضعت خطتها بتؤدة، وخطوة خطوة، استثمرت جمالها الحار وأسلوبها الشائق وقدرتها على المناورة والتأثير، وخرجت إلى السوق بحثًا عن الشهرة والمال لإرضاء جوعها الأزلى وعطشها اللانهائى!

وكلما أحرزت انتصاراً تهاوى زوجها، درجة ارتفاع من جانبها يقابلها انخفاض من جانبه، وأصبح الجميع ممن يعرفونها مطلعين على أسرار الحكاية. أما أصل الحكاية أو مفرداتها فهو رجل قليل الموهبة يطمع فى الشهرة والمال، وامرأة موهوبة أكثر فى أنوثتها تطمع فى الشهرة والمال. إذن يجمعهما الشراهة، أما هو فمهزوز أو أصبح مهزوزاً مثيراً للشفقه والرثاء، وأما هى فقد أصبحت ثابتة القدمين لشهوة الرجال المشغولين بالنساء، ومثيرة أيضًا لازدراء العقلاء من النساء والرجال.

ولا أحد يعرف على وجه الدقة هل زلّت هذه المرأة أم ما زالت متمسكة بشرفها؟! ومسألة التمسك بالشرف تعريفها عند بعض الناس وبخاصة البسطاء هو عدم النوم مع رجل غير زوجها. أما البعض الآخر فيرى أن استغلال امرأة لجمالها وتعمد إثارة الرجال والإيحاء لهم جنسياً هو قمة عدم الشرف. وما زال القليل من الناس يرى هذه المرأة معذورة!.

فهى طموح ذكية وجميلة.. تزوجت من رجل محدود غير مقنع، وبخاصة أنه فيما بعد سقط من عينها - بين شك فيها واتهمها بالزنا، هنا ينغلق عقل المرأة تمامًا فى وجه زوجها مثلما ينغلق قلبها، ويصبح من حقها أو يصبح من المتوقع أن تعجب برجل آخر يغزو عقلها أولاً، ثم يغزو قلبها، رجل مقنع، رجل أقوى منها بعقله وليس بعضلاته، رجل أقوى منها بحنانه وليس بقسوته، رجل واثق من قدراته، رجل ناجح أو متميز، أو مبدع.

ولكن بعض هؤلاء الرجال المتميزين يكون لهم مآرب أخرى، إنهم من هواة أكل لحوم البشر وبخاصة لحوم النساء الجميلات وكل شيء له ثمن، فإذا أردت الشهرة يا سيدتى فعليك أن تدفعى الثمن من حر لحمك!

وإذا أردت المال فمن البديهى أيضًا أن تدفعى بكل لحمك، هذا هو قانون سوق الحب، قانون العرض والطلب هذا هو العدل. أعود فأقول إنه لا أحد يعرف على وجه الدقة ما إذا كانت هذه المرة قد زلّت أم أنها ما زالت تقف بالباب. وعلى كل حال فإنه من المتوقع لها الزلل قريبًا خاصة أمام إغراء كبير تنهار أمامه وتُسلم.

والمتوقع أيضًا أن زوجها المريض بالشك والذى يتغاضى عن شكوكه مرحليّاً حتى يحصل على ما يريد من مال وشهرةسيعرف بزللها، ومن الممكن أن تتخيل سيناريو ضعيفًا نسبيّاً يتمثل فى أنه فى يوم سيسترق السمع لمكالمة تليفونية مع أحد الرجال، وفى هذه المكالمةسيسخران من الزوج ويتهمانه بالغباء والغفلة وانعدام الموهبة ثم يتبادلان الغرام عبر أسلاك التليفون، وهنا يدخل عليها الزوج والذى لا يمتلك غير قوة عضلاته ويخنقها بكلتا يديه حتى تموت بينما هو يردد: يا خائنة.. يا خائنة، ومثلما يحدث فى كل السيناريوهات الضعيفة سيذهب ليسلم نفسه إلى الشرطة!

ولكن القانون فى مثل هذه الحالة يتعاطف مع الزوج القاتل فيخفف من العقوبة، وربما يحصل على البراءة ليرعى طفلته المراهقة وطفله الحدث!

●●●

الشياطين تتحدى مدينة

عم الفساد فى الأرض بعد أن ولد جيل جـديد من الشياطيـن لا يعرف اليأس إلا مدينة واحدة ظلت على عنادها لا تستسلم أبدًا يغـمر نور الله قلوب سكانهـا فـلا يقـربون رذيلة، رحـمـة من الله وتواصـلاً مع رحـمـة ربطت بينهم فنعمـوا بالأمن والسلام، كـانت المدينة تنام بعد صلاة العشاء تستنشق الورد حتى تصحو قبل الفجر لتشرب الندى حتى آخر قطرة، فتنتعش وتستبشر ويهب سكانها فرادى وجماعات متجهين نحو بيت الله، وحين يعلو الأذان لا تجد أحدًا إلا وهو قائم يصلى.

وفى هذا الوقت تخلو المدينة من الشياطين تمامًا. وعمومًا فإن زيارة الشياطين إلى هذه المدينة تباعدت حيث لا أمل فى غواية.

تحدِّى الشياطين ليس بالأمر الهين، لأنه يقلب الموازين ويهدد الفكرة الأساسية من عملية الخلق، ويلغى المفهوم الواقعى لطبيعة البشرية فلا تسمع من الناس إلا الحمد دون الاستغفار وطلب الرحمة دون المغفرة.

وحرصًا على التوازن، وبدافع شهوة الانتصار، فإن فريقًا من الشياطين الجدد المدربين بالذات على غواية العابدين والمهرة بالتحديد فى اختراق قلوب الزاهدين قرر تكثيف الجهود فى هدم حصون الورع والخشية التى تغلف قلوب أهل المدينة، مستخدمين

أسلوبًا جديدًا وهو إطلاق سهم الغواية حين يكون الإنسان فى أقرب مكان من الله ملامسًا لذة القرب أو يكاد، فإذا هوى الإنسان واستسلم فإنه يفقد الأمل فى أى قوة تحميه فى المستقبل ويؤمن بقوة الشيطان اللامحدودة، بل ربما يترسخ لديه مفهوم جهنمى هو أنه كلما اقترب من الله قلت مناعته وزادت فرصة انزلاقه.

قبل الفجر بقليل هبطت الشياطين المدينة المؤمنة، رصدوا حال القلوب فلم يعثروا على قلب واحد به مرض، رصدوا حال المقاومة فوجدوها أصلب من الحديد، فاجتهدوا فى العثور على أصلبهم والذين تصوروا أن الشياطين لن تهزمهم أبدًا لمتانة الصرح وصلابة البنيان ورسوخ القواعد، نعم رسوخ القواعد، هذا هو الأهم تسمّعوا فوجدوا أربعة تستمع السماء إلى تسابيحهم باهتمام، لأنها صادرة عن نفوس خاشعة وقلوب عاشقة وألسنة طاهرة فتأكدت الشياطين من رسوخ قواعدهم.

أولهم شاب لم يرتكب معصية قط، متعته فى العبادة والعمل، ورغم قوته وجماله فإنه قد حفظ فرجه حتى يأذن الله بالزواج، ولذا كان يصوم كثيرًا، ويرتفع عن الزلل بقناعة ورضًا، ومن شدة ورعه اختاروه إمامًا للجامع ينهض فى السحر ليتعبد، ثم يمضى إلى الجامع يؤم المصلين للفجر وعند كل صلاة.

ثانيهم أب رزقه الله بابنه الوحيد بعد طول صبر ورضًا من جانبه، وحين بلغ ابنه السابعة اجتهد فى أن يحببه فى الصلاة فأحبها

وحرص عليها وبرع لسانه فى ترديد آيات القرآن وحفظ الأحاديث فكان نموذجًا للولد الصالح محظيّاً بحب الله وكرمه ورعاية أبيه .

وثالثهم رجل صابر على بلواه برضا وحب، وإن لم يمنعه ذلك من الألم الشديد على زوجته الحبيبة الصالحة رفيقة عمره، حيث أصابها المرض فأقعدها منذ سنوات فقام على خدمتها ليل نهار دون كلل وبترحيب بالتعب، وبعفة جعلته لا يفكر فى امرأة أخرى حتى وإن جاز له ذلك تحت مظلة الزواج .

ورابعهم رجل يسر له الله التوبة من أوسع أبوابها لشدة ندمه وألمه فتاب عن السرقة واتجه للعمل الشريف المضنى متصدقًا بأكثر من نصف رزقه ضاربًا المثل على نعمة الهداية خاشعًا فى صلاته، لا يترك مريضًا إلا عاده ولا فقيراً إلا ساعده، ولا مظلومًا إلا سانده، ولا محرومًا إلا أعانه . كان تجسيداً لرحمة الله بعباده حين يتوب عليهم .

انقسمت الشياطين إلى أربع مجموعات كل مجموعة تولت واحدًا من هؤلاء الأربعة فى توقيت واحد .

قام الشاب أكثر من ثلثى الليل مصليًا متعبدًا شاكراً حامداً ومستغفراً لا عن معصية ولكن زيادة فى التقرب إلى الله، وقبل الفجر بساعة خرج من بيته متجهًا إلى الجامع ليؤم الناس للصلاة، كان الظلام محكمًا والطرق وعرة ولكن القلب يقفز مستبقًا إلى بيت الله، وبينما هو يجتاز طريقًا تناثرت فيه بعض البيوت متفرقة دون انتظام سمع صوت امرأة ينبعث من أحد البيوت عاليًا محتدآ، وهنا

اقترب أحد الشياطين وشد أذن الشاب ليلتقط بعض كلمات المرأة منصرفًا بتركيزه عن ذكر الله! . . كان بصوت المرأة لوعة وغضب ولا يخلو من جمال، اقترب من البيت أكثر، بانت الكلمات واتضحت معانيها، ماذا تقول هذه المرأة؟ يا لهول ما تقول!!

إنها تعاتب زوجها لأنه لا ينام معها، لقد أهملنى منذ عام وأنا جميلة الجميلات، لقد صبرت على مرضك ولا أقوى على الاستمرار، إننى أقاوم بشدة وأنت لا تحاول أن تفعل شيئًا، أكاد أنهار، إن صبرى قد نفد، واحتمالى قد تفتت، واشتياقى للرجل أصبح بلا حدود. إنه اشتياق امرأة صغيرة لا تنزل عنها عينا أى رجل يراها لجمالها الفائق. . افعل شيئًا وإلا طلقنى حتى لا أخطئ!

اهتز قلب الشاب الذى اقترب أكثر من البيت، واهتز بدنه حين سمعها تقول لزوجها بغلظة، لماذا تريد أن تترك البيت الآن. .؟! وقد تزينت لك وتعطرت وتجردت من ملابسى لعلى أحرك مشاعرك وها أنت تهرب للصلاة!

صعدت الدماء إلى رأس الشاب حارة فألهبت وجهه وتحركت إلى بعض أعضائه. . فأشقته بالخيال الجامح تصورًا لهذه المرأة الجميلة العارية الملتاعة التى تطارد زوجها بينما هو يهرب منها!

ولكن الله أراد أن يستر عليه فلم يره الزوج وهو يخرج من بيته منكسرًا مطأطأ الرأس، بينما ظل الشاب متسمرًا مكانه وقد غزته

كل الشياطين بعنف فى لحظة اتسمت بالتصعيد لكل شىء متقربًا من الذروة التى تجمع التركيز فى شىء واحد، واحد فقط، وهو اللقاء بهذه المرأة، وأنزل أحد الشياطين الفكرة على رأسه.. يطرق الباب، تفتح هى يقول لها: لقد سمع الله تحاورك مع زوجك ولقد أرسلنى لك الألبى حاجتك حتى لا تخطئى، لقد جئت حماية لك، وهيأ له الشيطان ضمان استسلامها له سواء صدقت روايته، أم لم تصدق!

طرق الباب، فجاءه صوتها استفساراً عن الطارق، فأخبرها من هو، أمهلته بعض الوقت، لعلها ترتدى ملابسها، فتحت الباب، ويا لهول ما حدث، ارتمت فى أحضانه، لم تترك فرصة للمناورات لم تتح للصراعات أن تنهض، هكذا تحقق الحلم دون مجهود، لقد جعل الشيطان كل شىء سهلاً، سحبته إلى الداخل، كان كل شىء معداً لممارسة الحب.

وفى اللحظة التى بدأ يهم بها ارتفع صوت الأذان يدعو الناس للنهوض من نومهم، ارتج بشدة.. توقفت كل حاسيسه البشرية.. التوت روحه بألم حاد.. وانغرز سكين بقلبه وكوت النيران جوفه.. وتخيلها ثعبانًا يريد أن يلتف حول عنقه، فى لوقت نفسه صرخت المرأة، أخذت تنتحب وتستغفر الله، كان ألمها لا يقل عن ألمه.

لقد نزلت رحمة الله من السماء فتبعثرت الشياطين ثم انسحقت.. أما المرأة فتوضأت وصلت وهى تقطر حزنًا وندمًا. أما

هو فانطلق إلى الجامع وأعاد التوضأ، وصلى بالناس وهو يقطر حزنًا وندمًا!

●●●

كاد يتم حفظ كتاب الله وهو دون السابعة ما فاتته صلاة فجر مستيقظًا قبل أبيه وأمه، استوعب قلبه عشق الله، وهو فى هذه السن المبكرة مثلما استوعب عقله أجلَّ المعانى المتعلقة بالحكمة الإلهية، حامت الشياطين فى هذه الليلة حول البيت تسترق السمع وتحاول أن تندس إلى عقل الأب بالذات لصلابة إيمانه وتحمله المكاره وصبره على أى أذى، كان عبدًا صبورًا شكورًا، ولو حلم مثل إبراهيم بأنه يذبح ابنه لذبحه تصديقًا للرؤيا.

فى هذه الليلة بالذات كان ابنه يعانى مرضًا، ولكن الطفل أصر على مصاحبة الأب لصلاة الفجر فى الجامع، تشددت الأم فى اعتراضها ولكن رق قلب الأب لإلحاح ابنه ومطمئنًا الأم أن الله سيحمى ابنها من كل سوء وكيف يضير الله طفلاً يسعى إليه ويبغى مرضاته!

وبينما كان يعبر بابنه الطريق والظلام مطبق انفلت الابن وسبق أباه بخطوة فى هذه اللحظة أقبلت سيارة ضخمة مستهدفة الابن تمامًا ساقتها الشياطين، وأصبح مؤكدًا أنها ستدهس الطفل فى غضون ثانيتين أو ثلاث وأن السائق إذا رأى الطفل وحاول أن يتفاداه فلن يستطيع حيث لا تتوفر الإمكانات فى هذه السيارة أو أى سيارة للانحراف أو التوقف المفاجئ قبل مصادمة الطفل،

هذا أمر مستحيل بكل الحسابات، تيقن الأب من هذه الحقيقة فهو الشاهد الوحيد على الأرض، وتلاحقت عشرات المشاعر والأفكار والأحداث فى هذه الثوانى المعدودة، فرغم أنها ثوان معدودة فإنها تعد زمنًا، زمنًا بحسابات خالق الزمن!

وثمة أحداث تقع وفق حسابات البشر ووفق إدراكهم لهذا الزمن، وثمة أحداث تقع وفق حسابات الخالق فى نفس هذا الزمن. . تتابعت مشاعر الأب من الهلع إلى التسليم بقضاء الله، ثم اليقين بلطف الله، ثم بُعد اليأس من رحمة الله، ثم بالدعاء. . ومرت ثانية أو ثانيتان بحساب البشر.

وفى الثانية الثالثة هبطت رحمة الله من السماء استجابة لدعاء الأب وتكريمًا له لإيمانه وتسليمه، وتكريمًا للابن الصالح، وانقلبت السيارة فجأة على جانبها دون أن تمس شعرة من الطفل، حيث كان يرتفع فى هذه الثانية الثالثة من الأرض إلى السماء تكبيرة الأذان: الله أكبر.

وبلغت رحمة الله مداها حين خرج السائق وتابعه من السيارة المنقلبة سالمين ولم تفتهم جميعًا صلاة الفجر. وهنا صعقت الشياطين منسحقين تمامًا مطرودين من هذه البلدة الطيبة.

•••

لا يقل صبر هذا الزوج على مرض زوجته عن صبر زوجة أيوب على مرض زوجها، ليس صبر الكارهين ولكن صبر المؤمنين

المحبين، كان يحب زوجته حبّاً جمّاً، ما أساءت له يومًا، تفانت فى خدمته وأدخلت على نفسه السرور وأطاعته وحفظته فى عرضه وماله قريبًا أو بعيدًا، أحسنت رعاية وتربية ابنيه فشبَّا على الصلاح والتقوى، كانا شديدى الخشوع والخشية. ما أخلفا قط موعد صلاة حتى وإن كان بأحدهما مرض، وما خسر قط ثواب صلاة الجماعة حيث كان يؤمها فى كل صلاة. ومرضت الزوجة الحبيبة مرضًا لا شفاء منه، أقعدها تمامًا فى الفراش فقام على خدمتها دون كلل أو تعب أو تذمر بل كل الرضاء والتسليم بقضاء الله مخففًا عنها داعيًا لها، وكانت تساعده فى رعاية زوجته المريضة وخاصة أثناء غيابه فى العمل شقيقة زوجته وكانت شابة جميلة عذراء لم يتطرق إلى خيالها دنس قط وكانت فى مثل صلاح شقيقتها المريضة. وفى الليلة التى هبطت فيها الشياطين للمدينة متحفزين مجتهدين نامت الزوجة بعمق غير معهود بينما أصاب الزوج أرق بفعل حرارة مفاجئة داهمت الجو فنهض يتوضأ ففوجئ بشقيقة زوجته تستحم دون توقع لعين تراها، فى لحظة أو أقل اضطرب لديه كل شىء، اختلت كل توازنات جسده الفسيولوجية وكل توازناته النفسية وأصيب العقل بحالة من التوقف المفاجئ وهو توقف مفهوم حتى لا يضطر لأخذ قرار إما بالتراجع وإما بالتقدم. لقد تخلص العقل من المسئولية وحل الصراعات التى نشبت بداخله بطريقة غير معروفة إلا فى عالم السياسة، وهى التوقف عن التفكير تمامًا، وبالتالى العجز عن اتخاذ أى قرار!

أما هى فحين رأته فبدت وكأنها فوجئت فلم تدر ماذا تفعل، وهذا أيضًا شكل من أشكال التوقف عن الفعل، أو الرغبة اللاشعورية فى التوقف عن الفعل سواء السلبى أم الإيجابى. المفاجأة تصيب الإنسان بالشلل وقد يحمل هذا الشلل دعوة للاستسلام، فتقدم نحوها وظلت هى مكانها مسدلة العينين، أخذت الشياطين تدفعه من ظهره بعد أن ألهبت جسده، مثلما سمرتها الشياطين فى مكانها بعد أن ألهبت جسدها. إنها فسيولوجية الجسد التى لا تعرف إلا الاستجابة الفورية حين يتوقف العقل عن توجيهها وحين كاد يلمسها ارتفع أذان الفجر من الأرض إلى السماء أن الله أكبر فانطلق كصاروخ خارجًا من البيت ووصل إلى الجامع وهو فى حالة يرثى لها فتوضأ وجثا على الأرض مستجيرًا مستنجدًا برحمة الله. أما هى فقد انهارت تمامًا، وأرادت أن تشعل النيران فى جسدها لولا خشية الموت على كفر، توضأت وصلت وهى على يقين من رحمة الله، وحينئذ انسحقت الشياطين تمامًا مطرودة من المدينة الصالحة!

●●●

كان قاطعًا للطريق ناهبًا للأموال ثم اهتدى، والله يهدى من يشاء.. عاش حياة الزاهدين رغم ماله الوفير الذى أتاه من حلال، وبين يوم وليلة تعرض لخسارة كبيرة فقد كل أموال، فعاد فقيرًا معدمًا لا يقدر على شىء، وفى الليلة التى هبطت فيها الشياطين المدينة جاءه من يعده بمال كثير إن هو أعان قومًا مجرمين على اختراق

الحدود محملين بتجارة محرمة مستعينين بقوته وخبرته . . اهتز بشدة، نازعته نفسه، عذبه التمزق بين فقره المفاجئ رغم استقامته وبين مال كثير يأتيه من حرام بجهد يسير، سقطة العقل هنا فى المقارنة بين نتائج الاستقامة ونتائج الانحراف، ذلك هو المنفذ الذى تريد الشياطين أن تخترق منه جدار إيمان هذا الرجل، يا أيها الرجل لقد أفقرتك الاستقامة، وهذا مال وفير يجيئك دون جهد حتى وإن كان حرامًا . خرج قبل الفجر بساعة حيث يلتقى بالشياطين الوسطاء بينه وبين المجرمين، وبينما هو يمضى فى طريقه ارتفع أذان الفجر من الأرض إلى السماء أن الله أكبر فارتج بدنه بعنف وتوقف عن السير واستدار عقله صوب الاتجاه السليم مدركًا أن المال الحرام يجلب الشقاء، ويكفى الإنسان أن يمتلك قوت يومه وأن ينام معافى آمنًا، هذه هى السعادة الحقة!

عاد أدراجه وتوضأ وصلى مستعيذًا بالله من الشيطان الرجيم .

وغادرت الشياطين المدينة قبل أن ينتهى الناس من صلاة الفجر!

●●●

رجـــل وامـــرأتـــان

الأشجار، كالقلوب تموت بعد طول صبر، تقاوم الجفاف حتى إذا لم يعـد أمل فى قطرة مـاء أو قطرة حب تقـرر الانسـحـاب.. والحب كـالماء مـصـدر حـيـاة لا بديل عنه. والقلب المفعم بالحب كـالشـجـرة المثـمـرة مـصـدر حيـاة لا بديل عنه. إذن هى حيـاة من حياة.. أما الموت فهو العدم ولا رجعة فيه.. من مات مات ومن مـات لا يعود فـلا تورق شـجـرة بعـد مـوتها، ولا ينبض قلب بعـد مـوته.. والشـجـرة التى تموت تجف وتصـيـر حطبًا والقلب الذى يمـوت يجف ويصـيـر حـجـرًا.. والحطب قـاس ولا يملك إلا أن يشتعل، والحجارة أشد قسوة ولا تملك إلا أن تدمى... أى تسيل من قسوتها دماء!

ومن عـجـب أن الماء والحب يأتيـان من السـمـاء رحـمـة بأهل الأرض فإذا امتنعت السماء حل الخراب.. ومثلما تتشقق القلوب عطشًا للحب، ويكون التلهف المجنون للبديل -حتى وإن كـان ماء البحر، حتى وإن كـان حبّاً بديلاً زائفًا فيزيد العطش حدة ويكون الضياع محققًا.

كان هو من طبقة اجتماعية متواضعة ولكنه كان طموحًا.. كان فقيرًا ولكنه كان مجتهدًا.. كان ذكيّاً ولكن محدود الثقافة. أما هى

فقد كانت تنتمى إلى طبقة أعلى فامتلكت المال والثقافة، فضلاً عن ذكائها.

كان صديقًا لشقيقها فدفعه طموحه لأن يطلبها زوجة له رغبة فى الارتقاء اجتماعيّاً. رضيت به زوجًا وأنفقت عليه حتى تخرج وأكسبته سلوكيات الطبقات الراقية فأتقنها. أما الذى يقدر عليه فهو تنظيم الشحنات العاطفية التى يضخها قلبه للحياة والأحياء وكذا الاستغناء عن عواطف الآخرين واستجداء اهتمامهم. لم تستطع هى بنفوذها الطاغى أن تحوله إلى إنسان بارد وكالح. فشلت فى أن تجعله يبدو محافظًا مترفعًا. ظل بسيطًا دافئًا يشع حبّاً وتفتح مسامه لتلقى الحب، تفيض روحه بالمرح وتطفح نفسه بالسرور وتفترش الابتسامة وجهه، وحاول هو أن يغيرها إلى مذهبه ويستميلها إلى أسلوبه ويقنعها بفلسفته فاستعصت عليه.. ظلت على برودها وتحفظها وترفعها حتى معه وإن لم تنكر فى داخلها أنها تحبه رغم عدم إعجابها به. ولأنه كان شرهًا فى الحب فإنه كان بالتالى ملحّاً فى ممارسته، ولكنها كانت معدومة الإثارة والاستثارة ولتمسكها بطقوس فى التمهيد والتحضير ثم التمكين ثم التطهر وكأنها تزيل دنسًا ففقد الرجل رغبته وتعفف مؤقتًا رغم تزايد عطشه. ولكن الذى أشقاه أكثر هو نقدها الدائم له والذى كان يحمل أحيانًا دفعات خفية من السخرية ترقى أحيانًا إلى درجة من التهكم شبه المعلن الذى يرتفع إلى أقصى مدى فى أحيان قليلة إلى حد التجريح والإهانة!

وكان يبذل مجهوداً خارقًا ليكون مثالياً كما تريده أن يكون سلوكًا ومظهراً وبلا روح . . ولكن روحه كانت تأبى، ولذا كان يبدو كالتلميذ الخائب بسبب ضعف قدراته مع قسوة المدرسة وبذلك يخر صريعًا . . يهزمه الصراع ما بين إرضائها وتحاشى غضبها وتفادى تجريحها، وما بين أن تكون نفسه على طبيعتها . . بسيطًا مرحًا وعاشقًا .

وحين انسدت الطرق تباعدا . . فانصرفت هى إلى الرفيع من الفنون تذوقًا وإبداعًا، وانصرف هو إلى أصدقائه الذين يجيدون كيف يضحكون ويلهون ويعبثون أحيانًا تحت تأثير كميات متوازنة من الخمر لا تفقدهم صوابهم، وإنما فقط تزيل الغمام وتلطف الجو وتنعش الهواء وتأتى بالقمر فى غير مواعيده ولكنه كان يحب زوجته الباردة ولم يفكر قط فى خيانتها مثلما كانت تحب زوجها (الأهوج) كما كانت تصفه ولم تفكر قط فى خيانته . واسترد بعض قوته المهدرة وكرامته المبعثرة بعد أن فتح الله عليه بمال وفير جزاء اجتهاد عرف عنه وإخلاص اشتهر به، مما أكسبه شجاعة أن يترك البيت لمرات غير قليلة ولمدد غير قصيرة إذا تعدت هى الحدود اللائقة فى التعامل مع الزوج . . !

وهدد أكثر من مرة أنه قد لا يعود أبدًا وحمل هذا التهديد معنى أنه يفكر فى الخلاص، ولكنه كان دائمًا يعقِّب هذا التهديد بقوله إنه ما زال يحبها رغم عدم صلاحيتها كزوجة بمقاييس، هو . ولكن طول

الحرمان جعل قلبه يتشقق فأفقده صبره وأفقده الأمل فى أن ثمة إصلاحًا قد يلوح فى الأفق. وكالعطشان الذى لا يجد ماء فيرفع رأسه ويفتح فمه فى اتجاه السماء لعل قطرة ماء عشوائية تهبط إلى فمه فإن صاحبنا العطشان للحب سمح بتسريب بعض المشاعر الدافئة إلى قلبه من بعض المحيطين به، وكانت إحداهن مدربة وذات خبرة بالرجال العطشى فأضافت إلى ماء الحب خمرًا لعبت برأسه وجعلته يرى الجنة الموعودة فى متناول عينيه، ولكنه غير مسموح له بدخولها إلا بصحبة هذه المرأة والتى هى على النقيض تمامًا من زوجته. خبرتها جعلتها تعرف تمامًا احتياجاته فتباسطت وابتذلت، غنت وهزرت ورقصت، أفعمته حبّاً وأشبعته جنسًا ولم تجعل نظامًا لأى شىء ولم تسمح لمنطق أن يسود أو أصولاً تفرض نفسها وتُحد من مزاجيهما!

غرق صاحبنا تمامًا فى العسل ولم يشأ محاولة النجاة بل تزوجها. . كان سعيدًا، يعيش الحياة التى يحبها وتوافق هواه ولكنه لم يتوقف عن حب المرأة الأخرى. . زوجته الأولى. . الحب الأول. . وكان على يقين أنها هى أيضًا تحبه بالرغم من إساءة معاملته.

وتكتم أمر زواجه الثانى. . ولكن لا أسرار تظل مخفية إلى الأبد، الأسرار جعلت ليتم إفشاؤها ويعم انتشارها. والذى لم يكن سرآ يكون انتشاره محدودًا. عرفت زوجته الأولى بأمر زواجه الثانى

فلم تبد انزعاجًا تمسكًا بمبدأ المحافظة والترفع . وطلبت الطلاق . . ولأنه كان قد فهمها وعرف مفاتيح شخصيتها فإنه وافق على الطلاق فتراجعت وقبلت الاستمرار مشترطة العدل فعدل معطيًا الأولى قلبه وعقله ومعطيًا الثانية جسده وروحه، إلا أن زوجته الأولى غلبها كبرياؤها فأهملته فهجرها نهائيّاً وعاش مع الزوجة الثانية، ورغم حلاوة العسل مع الثانية فإنه كان يحن إلى الحظل مع الأولى . . ورغم السرور مع الثانية فإنه كان يحن إلى بعض النكد مع الأولى فكان يزورها من حين لآخر، ولكنها كانت لا تسمح له بأن يلمسها جالسة فوق عرشها وهو فى وضع أدنى منها . أما حين يذهب إلى الثانية فكانت تجلس تحت قدميه فيشعر أنه ملك متوَّج، كان يحتاج الاثنين معًا، كان يستعذب مشاعره عند كل منهما رغم أنها كانت متناقضة . . أحب المشاعر التى يناقض بعضها بعضًا . . أحب أن يكون ملكًا فى أوقات، ملكًا متوَّجًا تتفانى امرأة فى الترحيب به وتدليله . . وأحب أن يكون عبدًا فى أوقات أخرى، عبدًا شبه ذليل تتفنن امرأة فى رفضه واحتقاره . . وأيضًا كانت كل امرأة منهما تريده بطريقتها الخاصة، كان يلبى احتياجًا ما لدى كل امرأة . . الأولى تشعر معه بتفوقها . . هى أعلى منه . . هى التى صنعته . . كان يرضى غرورها ويشبع كبرياءها ويغذى ساديتها أما الثانية فكانت تشعر أنها أدنى منه، كانت تحتاج إلى أن تشعر أنها خادمة لرجل واحد تراه أعلى منها . . سيدها . . مليكها . . ولىّ نعمتها كان يرضى عبوديتها ويشبع دونيتها ويغذى مازوخيَّتها .

ومن عجب أنه كان يتقمص الدور تمامًا عند كلٍّ منهما . وذلك بالرغم من رفضه فى البداية لدوره مع الزوجة الأولى . . إذ كان يلبس جلبابًا غير جلبابه . . ولكنه حين تزوج بالثانية فإنه أحب الجلبابين . . الجلباب مع الثانية هو جلبابه الطبيعى . أما جلبابه مع الأولى فهو الجلباب الذى كان يطمح إليه ولكنه ضاق به مثلما ضاقت صاحبة الجلباب به . فإذا ذهب إلى الأولى سمع الموسيقى الكلاسيك وأمسك كتابًا فى الفلسفة واستخدم بكفاءة أدوات الطعام ولم يقابل زواره بملابس الفراش وكان يستحم فى اليوم مرتين .

أما حين يذهب إلى الثانية فكان يميل إلى الأغانى الشعبية الهابطة والنكات ذات المعانى الجنسية المباشرة ويبعد عنه الصحف متذمرًا ويلتهم الطعام بأصابع غير نظيفة وربما يقابل زواره فى حجرة نومه، ولا مانع عنده أن تلاطف زوجته الثانية أحد أصدقائه بينما كان يغار غيرة شديدة على زوجته الأولى ويرفض أن تقابل أصدقاءه أو أن تتباسط مع أى رجل . ومرضت زوجته الأولى المرض الأخير الذى لم يمهلها، فجاء موتها مفاجئًا له فانهار تمامًا . . بكى بحرقة . . وقبَّل قدميها . . وسقط مغشيّاً عليه عند قبرها، وأصيب بحزن شديد طال شهورًا استدعى زيارة الطبيب النفسى، والذى أوضح له أنه فى الحقيقة فقد أمه فشعر بالترنح، فقد من كانت تمثل له الضمير الذى يجعله يعف ويمتنع عن الخطأ والزلل فشعر بالضياع، فقد الرقيب الذى كان يحفظ له النظام

والأصول والقواعد والنظافة فشعر بتهديد من فوضى متوقعة تشمل كل حياته . . كانت زوجتك الأولى تمثل الجانب الانضباطى فى حياتك وهو جانب مثالى كنت تحن إليه ولم تقدر عليه فأصابك الإحباط ولكنك لم تتخل عن حلمك . .

لم تسلم بفشلك . . استمرارك معها كان دليلاً على أنك كنت تؤمن بها ، واستمرارها معك رغم زواجك الثانى كان دليلاً على أنها كانت تؤمن بك . . كانت ترى الجانب المضىء فى داخلك فصبرت عليك لعلها تصلح من شأنك ، ولكن القدر لم يمهلها أو لعلها أصابها اليأس منك فآثرت أن ترحل!

عاد إلى العسل مرة أخرى ليغرق فيه أكثر وأكثر ، لهو ومرح وجنس وفوضى وابتذال وطرب رخيص وهوايات وألعاب جعلت فقط للأغبياء . وباغته القدر مرة ثانية فأصيبت الزوجة الثانية بمرض خطير أجهز عليها . فى خلال عام كان قد تهيأ فيه لمستقبل موتها . . وعاد إلى الطبيب النفسى وهو فى حزن شديد ولكن ضياع أقل . . قال الطبيب النفسى أنت فقدت هذه المرة الزوجة التى تجسد الجزء السائد فى شخصيتك ، أى «أنت» على حقيقتها . . «أنت» بدون رتوش . . أنت بدون مجهود . . أنت كما أنت وليس أنت كما ينبغى أن تكون أو كما تتمنى أن تكون . اختيارك الثانى جاء من نفس طينتك فرقصت روحك . إن روحك هى التى تعانى الفقد الآن وليس قلبك . . إن جسدك هو الذى يعانى الفقد وليس

عـقلك . . أنت لا تتـرنح هذه المرة لأنك أنت كنت السند لهـا . لم تكن هى زاوية ارتكاز ، ولـكنهـا كـانـت مـسليـتك التى ترقص على خشبة مسرح حياتك وكنت تشاركها الرقص وأنت ثمل حتى تنسى فشلك مع الأولى . ولذا فأنت ضعت حين ماتت زوجتك الأولى . أما مع موت زوجتك الثانية فأنت حزين بلا ضياع !

عاد إلى بيته . . رفع صورها حتى يخفف من لوعة الحزن . . عانى وحدة شديدة . . لم يغادر بيته إلا بعد أربعين يومًا بحثًا عن زوجة ثالثة !

●●●

الـــدفء

على دفعات متتالية تدفق الهواء البارد واحتل كل جنبات المدينة تسرب إلى البيوت مخترقًا كل الحواجز، متحديًا كل وسائل التدفئة التى باتت عاجزة أمام صقيع لم تعهده المدينة من قبل وفرض شعوراً عامّاً بالعدالة، حيث لم تُجْد الملابس الوثيرة والأغطية السخية فى درئه، تساوى الذين يملكون والذين لا يملكون.

اصطكت الأسنان، وارتعشت الأبدان وار نجفت القلوب، وتجمدت الأطراف وتصلبت الوجوه، وظن البعض أن يوم الفصل قد حل، إذا لا قبل لأحد بمواجهة هذه الموجة العاتية، أسرع مَن فى الشارع إلى بيته وأحكم إغلاق البيوت على أهلها دون أن يجرؤ أحد على مغادرتها مهما كانت الأسباب، إلا أن الحال ظلت على ما هى عليه وبات من الصعب أن ينحبس الناس خلف الأبواب، فتسلل بعضهم لقضاء الحاجات الملحة.

رجل مُسنٌ وزوجته

لأنها كانت تصغره بعشر سنوات، فإنها كانت أكثر تماسكًا منه، أما هو فقد كان فى كرب شديد، نظرت فى عينيه فتصورت أنه سيموت منها، أصابها هلع.. أحضرت كل ما هو مدفئ من ملابسه. أدخلته الفراش وأحاطته بذراعيها.. رفعت الغطاء حتى غطى وجهيهما..

قال لها بصعوبة : لم تعان البلاد مثل هذا البرد منذ خمسين عامًا ، كنت فى الخامسة والعشرين . .

أمنت على كلامه قائلة : وفى هذا العام تزوجنا ، ابتسم دون أن تراه ، أما هى فاستطردت : لم تكن تخشى بردًا وإن اشتد ولم تكن تضجر من الحر وإن قسا ، كنت قوياً . أما الآن فقد كبرت .

عاود الابتسامة من تحت الغطاء وقال بصوت أقل ارتعاشًا : أما أنت فقد كان البرد يعتصرك رغم صغرك .

شعر بابتسامتها وهي تقول بصوت مرح تحرر نسبياً من الخوف : كنت تدفئنى بذراعيك وها أنا ذا أرد لك الجميل .

قال وكأنما يغيظها أو يستفزها بحب : لكن ذراعيك فقط لا تدفعان بردًا ، أحيطينى بجسدك كله .

قالت وهى ترد غيظه بغيظ : يا رجل لقد انهد «حيلك» ولم تعد تقوى على حمل نملة .

قال بتحدٍّ : جربينى . . وسترين أننى قادر على حمل بقرة .

قالت بغضب : يا رجل لقد كبرت وما زالت ألفاظك سيئة وجارحة . وإذا كنت أنا بقرة فأنت ثور .

قال وهو يزيد الموقف اشتعالاً بعث بعض الدفء خاصة فى الأطراف : لا مانع عندى أن أكون ثورًا إذا كانت البقرة ستدفئنى !

قالت وما زال الغضب شبه المصطنع يلون صوتها : إذا لم تسكت سأتركك تنام وحدك .

قال باستعطاف يحثها على الشفقة : وتتركيننى أموت وحيداً .

هزتها كلماته وتذكرت أنها رأت الموت فى عينيه من شدة البرد.

فأحكمت ذراعيها حوله فقبَّل جبينها، فالتصقت به فحمى الفراش من شدة الدفء الذى عم البيت كله وناما بعمق شديد .

رجل وامرأة

أوجعها قلبها من شدة قلقها على زوجها الذى لم يعد بعد إلى بيته رغم أنه غادر عمله منذ ساعتين . . أما هو فقد كان يواجه البرد القارس بكل جسده وهو يمضى فى الشوارع التى أقفرت من الناس .

وهربت منها كل السيارات، وأصبحت المدينة تبدو وكأنها مهجورة . . أنهكه البرد ووقع فى الطريق أكثر من مرة وجرحت يداه وتاه عقله يبحث عن أى وسيلة تحمله إلى بيته، بينما كان هو فى هذه الحالة السيئة كانت زوجته فى حال أسوأ منه من شدة البرد ومن شدة القلق، وخطر لها أنه قد يموت فى الطريق، ففكرت أن تخرج للبحث عنه، لكن أين تجده، ظلت تروح وتجيء وتقرأ كل الأدعية . وفى النهاية لم تستطع فخرجت إلى عرض الطريق .

وإذا به يأتى من بعيد وهو يترنح أخذت يده ووضعتها على كتفها وأحاطت خصره بذراعيها وأدخلته البيت .

وفى الفراش دثرته بأكثر من غطاء، وأحاطت أطرافه بزجاجات مليئة بالماء الساخن وأطعمته حساء ساخنًا، وجاءت بطفليه فاندسا جانبه تحت الغطاء ثم انضمت إليهم فالتصقت أجسامهم الأربعة.

وأحاط كل منهم الآخر بذراعه فحمى الفراش بالدفء الذى امتد إلى بقية البيت وناموا جميعًا بعمق.

طفلان

كان الذعر باديًا على وجوه الناس وهم يُهرعون إلى بيوتهم خوفًا من تساقط المطر بعد هذه الهجمة الشرسة من البرد. ولم يلتفت أحد منهم إلى طفلين دون العاشرة، وهما يندفعان فى غير اتجاه معين، وأخيرًا استقرا أمام عتبة أحد البيوت، ولم يقويا على الوقوف من شدة الهواء الذى كان يدفعهما دفعًا فاستلقيا على الأرض حتى لا يواجهاه بجسديهما النحيلين..

بينما كان أحد السكان يندفع إلى الداخل اصطدم بالطفلين فوقع على الأرض، نهض وهو بينهما وبصق عليهما.. وهنا تبادل الطفلان أول كلمات تعبر عن الألم والحزن وهما ينتفضان ولا شىء يحمى بدنيهما شبه العاريين، وكانا منذ وقت قصير وقبل المجيء المفاجئ للبرد متخاصمين، ومرَّ بهما ساكن آخر ونظر متعجبًا ونصف مشفق، لكنه أسرع إلى شقته، ثم تبعته امرأة تحمل طفلاً وهى تولول خوفًا على ابنها، وتوقفت لحظة أمام الطفلين اللذين يفترشان الأرض ثم اندفعت إلى شقتها وهى ما زالت تصرخ.

لم يدر الطفلان ماذا يفعلان والبرد يقرص كل جزء من جسديهما، فاحتضن بعضهما البعض، فأصبحا وكأنهما جسد واحد، قال أحدهما للآخر: أنا أحبك يا أخى، سامحنى، رد عليه الآخر قائلاً: وأنا أحبك يا أخى سامحنى، ثم ناما بعمق نومًا لذيذًا.

رجل وحيد

فاجأه البرد بينما هو يمشى بلا هدف وأى هدف لرجل يعيش وحيدًا بعد أن ماتت زوجته ورحل أبناؤه. ورغم اللسعات النارية للهواء البارد، فإنه تردد فى العودة إلى البيت، ولماذا يعود؟

فظل يمشى فى الاتجاه المعاكس للبيت. وكلما مضى الوقت زاد توحش البرد، وصار كأنياب حيوان مفترس انغرست فى جميع أنحاء جسده، وكلما اشتد عليه الألم أمعن فى الابتعاد عن بيته، وكأنما كان يلجأ إلى برد الشارع تفاديًا لبرد أكثر شدة فى البيت. كان يمشى على مهل بينما الناس يجرون، ومن يلحظه منهم كان يعجب من أمره ويظنه مجنونًا، بينما هو فى ذهوله توقفت بجواره سيارة وشدته يد قوية على المقعد الخلفى، ووجد نفسه يجلس بجوار رجل ما زال يتمتع بنضارة الشباب وسيدة لا تقل عنه حيوية تبدو أصغر منه سنّاً.

توقفت السيارة أمام بيت كبير كالقصر، أسنداه حتى دخل معهما البيت وانحط على أول كرسى قابله. أتيا له بملابس ذات كفاءة فى مقاومة البرد، وشرب شايًا ساخنًا، وجلس أمام المدفأة،

إلا أنه لم يشعر بأنه فى حال أفضل إلا حينما جاءه الرجل ومعه السيدة وجلسا معه .

وعرف أنهما زوجان، ثم جاء الأطفال ليصافحوه، ثم جلس معهم على العشاء، ثم أخذوا يضاحكونه ويطمئنونه .

عجب من أمرهم كيف يحملون رجلاً غريبًا من الشارع إلى داخل بيتهم ليجلس بينهم . .

سألهم مباشرة فأجابته السيدة : كنت على وشك الموت من البرد .

سألهم : وماذا يعنيكم من أمرى؟

أجاب الرجل هذه المرة : شعرنا وكأنك والدنا .

عاد فسأله : ألم تخش أن أكون مجرمًا؟

ردت السيدة على الفور : تبدو على وجهك الطيبة، وهنا شعر بتيار من الدفء يسرى فى عروقه مبتدئًا من قلبه ومتجهًا إلى كل مكان فى جسده، ونام فى استضافتهم بعمق، وكانت الليلة من أحلى ليالى عمره .

زوجة البواب

هى حجرة مساحتها متران، ننزل إليها بعشر سلالم أسفل عمارة ضخمة لها بواب اقترب من الأربعين هو وزوجته وأربعة من الأطفال بنتان وولدان .

منافذ الحجرة غير محكمة الإغلاق، سمحت بمزيد من الهواء البارد أن يدخلها فى هذه الليلة الشنعاء. . أيقظه البرد الغازى ولم يدر ماذا يفعل وهم لا يملكون إلا غطاء واحدًا، آثر أن ينسحب من تحت الفراش ليترك مساحة أكبر تحيط بأطفاله وزوجته أطمأن إلى أن الفراش يغطى أجسامهم كلها، فيما عدا الوجوه.

استند جالسًا إلى الحائط فى أحد الأركان، نام بعد أن أمعن النظر إلى أسرته النائمة وملأه حنان أدفأ وجدانه، صحا على حركة بجانبه فرأى زوجته وهى تغطيه بجلباب بينما أحاطت أطفالها بكل الغطاء. حملت نظراته إليها حنانًا جارفًا فسعت إلى جواره وبادرت هى باحتضانه.

●●●

زوجـــة الأخ

لا شيء يدعو للاندهاش فى هذا الكون الرحيب إلا الإنسان، فالطبيعة لها قوانينها التى تحكمها، وبالتالى فإذا كان هناك خروج على القانون فإن هناك تفسيراً مادياً لهذا الخروج فأى خرق للنظام المادى له أسبابه المنطقية، أى هناك قانون يفسر الخروج على القانون.

إلا أنه تظل هناك حقائق ثابتة، قانون أساسى، نظام لا يتغير والقانون فى هذه الحالة صنعه الله بتفصيلاته وجعله فى يده هو وحده يدير به حركة الكون، وبالتالى فنحن نندهش بل لا نصدق أى خرق لهذه القوانين الثابتة كحركة الليل والنهار وشروق الشمس وغروبها، هذه قوانين لا تعطل ولا تختلف ولا توجد أسباب لاختلافها، فنندهش أو لا نصدق أن شمس اليوم أشرقت من حيث غربت بالأمس، ونندهش ولا نصدق أن ليلاً أعقبه ليل وتخلّف النهار عن مجيئه.

أما القوانين التى تحكم السلوك الإنسانى فقد تركت تمامًا للحركة الذاتية للإنسان، أى لاختياره المبنى على إرادته، فلا تسيير وإنما تخيير، وإذا صدر عن إنسان ما سلوك شاذ أى خارج نطاق ما نتوقعه أو ما نعرفه عن طبيعة البشر فإن هذا الشذوذ تكون له أسبابه التى أدت إليه وتعددت النظريات، فثمة أسباب نرجعها إلى عهد بعيد فى الطفولة التى تتعلق بالتربية والتنشئة والملابسات التى

أحاطت بهذه المرحلة المبكرة من العمر والتى جعلت الأحداث تترك آثارًا لا تنمحى أدت إلى شذوذ فى مرحلة تالية تحت ضغوط معينة، وثمة أسباب أخرى تتعلق بمتغيرات بيئية ضاغطة، وثمة مستوى آخر من الأسباب مرتبط بتغيرات بيولوجية تحدث من داخل الجسم ولأسباب قد تكون وراثية، وفى هذه الحالة قد نسمى هذا الخرق للقانون الذى أدى إلى هذا السلوك الشاذ مرضًا ولا حرج حين يمرض الإنسان، أى لا تندهش، فالإنسان لا يكون طبيعيّاً إلا فى الأحوال الطبيعية، وطبيعى معناها أنه ملتزم، ولها معنى آخر وهو أننا نستطيع أن نتنبأ ونتوقع سلوكه وفق خريطة إنسانية عامة وخريطة إنسانية خاصة: بيئته ومجتمعه وثقافته وظروفه الشخصية فى الماضى والحاضر.

وإذا لم نجد سببًا ظاهرًا فقد يكون باطنًا وإذا لم نستطع أن نعثر على هذا السبب الباطن، فهذا ليس معناه أنه غير موجود وإنما نحن الذين لم نبحث بالقدر الكافى، وأن هذا السبب مخفى فى الأعماق بحيث لا يستطيع أحد أن يعثر عليه بل الإنسان ذاته صاحب المشكلة لا يستطيع أن يراه ويدركه، أى أن لكل شىء سببًا ولهذا يجب ألا نندهش.

نحن إذن إذا اندهشنا فهذا معناه أننا لا نريد أن نصدق، لا نريد أن نصدق أن هذا السلوك صادر عن إنسان سوىٍّ، ولهذا فنحن نصرخ ونقول: هذا مجنون.. مجنون، وكلمة مجنون معناها

أننا نرفض أى تفسيرات وأى مبررات، لا نقبل إلا تفسيراً وهو التغير المادى الذى يحدث فى مخ الإنسان إصابة ما جعلته غير بشرى، غير إنسانى، أى أن من يملك مخّاً طبيعيّاً فليس له الحق أن يسلك سلوكًا غير طبيعى، ولهذا يجتهد الإنسان بشدة فى اتجاه العثور على الأسباب الخلقية والتكوينية والتشويهية التى تفسر السلوك غير الطبيعى للإنسان أو تلك الأسباب الخارجية التى تُحدث تأثيرات مادية غير طبيعية فى مخ الإنسان. إذن نحن نتعلق بالأسباب المادية وذلك لأنها تكون خارجة عن نطاق إرادة الإنسان تمامًا ونرفض الأسباب الاجتماعية أو الأسباب النفسية.

لقد طالت المقدمة لأن ما هو قادم مفزع، كصاعقة أو كزلزال.. طالت المقدمة لتتهيأ لاستقبال حدث خارق عن نطاق الطبيعة البشرية، وهناك إيحاء صريح فى المقدمة يوحى بأن أسبابًا عضوية وراء السلوك الشاذ، وحتى إذا كانت هذه الأسباب المادية غير واضحة الآن فإننا سوف نكتشفها فى المستقبل، المقدمة توحى بأن ما حدث لا يعبر عن الطبيعة البشرية بأى حال، لا يفعل ذلك إلا مريض.

وبعد طول انتظار نقول إن الحدث ببساطة هو أن رجلاً أحب زوجة شقيقه فدفعها إلى الطلاق منه وتزوجها، أو أن سيدة أغرت شقيق زوجها وأقامت معه علاقة وأقنعته بالزواج فطلقت من زوجها وتزوجت شقيق الزوج.

سينقسم الناس إلى قسمين بعد قراءة هذه السطور السابقة التى تحكى القصة : قسم سينزعج بشدة ويرفع صوته قائلاً هذا غير معقول، أنا لا أصدق، هذا رجل مجنون وهذه إنسانة مريضة، أعوذ بالله من شر يفسد حياة البشر، هذا فعل المرض، أو فعل الشيطان!

أما القسم الآخر من البشر فسيهز الأكتاف ولن يبدو عليه أى اندهاش وسيقول ببساطة إن لم يكن بفتور : هذه هى طبيعة البشر، الخيانة جزء من النسيج البشرى، هذه حكاية طبيعية تكررت وستتكرر عددًا غير محدود من المرات، وهناك، ما هو أفزع منها . إذن هناك نوعان من الناس : نوع حسن الظن بالطبيعة الإنسانية، ونوع آخر سيئ الظن بالطبيعة الإنسانية، النوع الأول يرجع الظواهر غير الطبيعية إلى فعل الشيطان أو المرض، والنوع الثانى يرى أنه ليس من خرق لقانون بشرى فى أى فعل شاذ، فالشذوذ هو أحد أوجه الطبيعة البشرية .

الأسرة شديدة الثراء، وعميد الأسرة وربها يملك ذكاء وجبروتًا ولم يرث كل الأبناء كل صفات الأب إلا الابن الأكبر، ولذا اختاره نائبًا للرئيس، والمؤسسة التجارية ضخمة استوعبت كل جهد الأشقاء وعددهم أربعة ومثلهم من الشقيقات، الماء واحد والصحن واحد والسكن واحد، مترابطون متحابون مخلصون لله وللأسرة والعمل، وبقدر ما كان الأخ الأكبر يملك من قوة وشجاعة كان الأخ

الأصغر يملك رومانسية وشاعرية، ولكن لم يكن يعوزه الذكاء فى إدارة حركة المال، وكان الأخ الأكبر أول الذين تزوجوا وبقدر ما يملك بقدر ما امتلكت عروسه من سمات أهمها الجمال الفائق والذكاء الأنثوى الناعم والإرادة الفولاذية والطموح اللامتناهى.

وأى امرأة تنضم لهذه الأسرة كانت ستقنع بهذا المال الوفير وهذه المكانة الاجتماعية المرموقة فليس ما هو أعلى من ذلك تطمح إليه أى امرأة، وهكذا كانت فعلاً الزوجتان الأخريان للشقيق الثانى والشقيق الثالث، فقد قنعتا بالحياة الرغدة الهادئة دون منافسة تفسد المذاق أو طموح يقلق الخاطر، إلا زوجة الشقيق الأكبر فكانت تريد العالم كله بين يديها، وكانت تثق بقدراتها الذهنية والأنثوية وبخبراتها، ولم يقنعها زوجها فقد كان نمطياً تقليدياً محافظًا ونسخة مكررة من أبيه وأدهشها الشقيق الأصغر الذى كان أكثر وسامة وأكثر رقة وأشد ذكاءً وأكثر تحررًا وانطلاقًا ومواكبة للجيل الجديد، الجيل الذى يفكر فى البلايين وليس الملايين، ولذا كانت تتحدث أكثر مع الشقيق الأصغر حيث تشاركا فى نفس الأحلام والميول والاهتمامات، ولم تلق أفكارهما تشجيعًا بل اعتراضًا وسخرية!

وتحت مظلة الرومانسية حدث تقارب من نوع آخر، تقارب يمليه هوى غير منضبط إذ لا يملك ضبط هواه.

كل شىء يمكن ضبطه ومقاومته وتقويمه وتحريكه إراديًا إلا الهوى، وقديمًا قالوا لا علاج للهوى، بل هو جانح مارق، والهوى

هو الميل الجارف والتعلق الزائد ومتعة المرافقة ولذة المصاحبة، وإذا وقع الهوى أتبعه ما هو أعلى درجة وأشد استبدادًا وهو الحب، والحب إذا نشأ فى ظل الحرمان والمستحيل تحول إلى عشق والعشق هو ما مات الإنسان دونه وفى سبيله ووقع المحظور وهو ليس بمحظور فى ظل هذه المشاعر الجارفة كشلال. وبذكاء المرأة الخارق امتنعت عنه بل أفهمته أنها ستترك هذه الأسرة لأنها لا يمكن أن تكون لرجلين فى وقت واحد، رجلين شقيقين. فقد توازنه تمامًا، بل كاد يفقد عقله، ولم يتصور الحياة بدونها، ولأول مرة تصورها زوجة له، وبحسه الاستثمارى تصور كم سيعلو للقمة برفقتها، ولذا قرر أن تكون له، ولكن كيف؟

كيف هذه تحتاج إلى وقفة، وقفة طويلة لنعرف مسار التحولات التى جرت داخله وأوصلته إلى أن يطلق زوجة شقيقه ليتزوجها، هذه هى فرصتنا لنتعرف على أعماق نفس بشرية أتت بسلوك شاذ، ما الذى حركه فى هذا الاتجاه؟ هل كان يملك الاستعداد العام للسلوك الشاذ والذى ظهر فى الوقت المناسب، وفى ظل ظروف داعبت هذا الاستعداد وأثارته وحركته، هل هو الهوى المباغت أم الاستعداد الكامن؟

والمحور الأساسى الذى نركز عليه فى هذه الحالة هو تاريخ علاقته بشقيقه الأكبر، هل كان يحبه أم يكرهه؟ أم مزيج من الحب

والكراهية؟ هل كان يغار منه أم يحقد عليه؟ هل كان يكره السلطة الوالدية فى شخص أخيه الأكبر الذى حل محل أبيه فى إدارة شئون العمل؟

هل كـان يشعـر أنه هو الأجـدر والأفـضل وأنه الأحق بالإدارة والسيطرة وأن أخاه الأكبر يحتل هذه المكانة لمجرد أنه الأكبر رغم عدم جدارته وأحقيته؟ هل كان يكره سطوة أخيه الأكبر واستبداده؟ هل هى مشاعر الكراهية نحو الأب طرحها على أخيه الأكبر نائب أبيه؟ هل كان يشعر أن أخاه الأكبر قد أخذ المزايا وأن أباه فضله على بقيـة أبنائه بدون وجه حق؟ هل كان يشعـر أن أخاه الأكبـر أنانى ومغـرور ولا يستحـق هـذه الزوجة الرائعة؟ هل كان يراها رائعة أم لأنه يريد أن يسرقها من أخيه الأكبر يريد أن يحرمه منها . . يريد أن يدمر حياته؟ هل كان لديه كل هذا الكم من المشاعر العدوانية تجاه شقيقـه، هل كان يتمنى لا شعـورياً أن يذبح شقيقـه؟ هل تتأصل العداوة والمشاعر السلبية منذ مرحلة مبكرة من العمر؟

هل إذا حل شقيق محل أبيه كـرهه بقية الأشقـاء؟ هل إذا كان شقيق محل تفضيل الأب كرهه بقيـة الأشقاء؟ هل الغيـرة هى القاعـدة الأساسية للمشاعر بين الأشقـاء؟ أم أن هذا تكوين الأخ الأصغر الذى يتسم بالأنانية من فرط التدليل الذى حظى به؟ أم أنه صـراع تاريخـى وتقليـدى بين الأخ وأخيه منذ بدء الخليقة وإلى أن تقوم الساعة؟

بقلب بارد، رتب الخطة مع عشيقته التى هى زوجة شقيقه، طلبت الطلاق، أصرت عليه، اندهش الجميع إذ لم يكن بين الزوجين ما ينبئ باحتمال وقوع مثل هذا الحدث الجلل، وما من امرأة تصر إصرارًا حقيقيًا عليه وخاصة إذا كان هناك رجل آخر إلا تم الطلاق، وبعد انتهاء العدة تزوجها. لم تمر به لحظة ألم، لم تمر به لحظة تردد، كانت عشيقته تقف وراءه بل تعيش داخله تراقب أفكاره وتتسمع على مشاعره وتقويه إذا شعرت بضعف بدأ ينتابه، كانت تغرقه فى العسل وتحرمه من تذوقه، وتضع الثمرة بين أسنانه وتمنعه أن يقضمها. تزوجها وسافر، وعاد ليخبر أسرته فخروا صرعى وطغى عدم التصديق على أى شعور بالألم، اضطربوا اضطرابًا شديدًا هددوه بالقتل، ثم تراجعوا وهددوه بالحرمان من الثروة، ثم تراجعوا وهددوه بالفصل من العمل، ثم تراجعوا وهددوه بالمقاطعة!

وتمر الأيام ويتقبل الناس ما لم يتصوروا تقبله فى وقت سابق، ويستمر العمل رغم المقاطعة الإنسانية، وظلت الدهشة تعوق الاستيعاب الكامل للموقف!

ويموت الأب، وتتدهور الحال بالأخ الأكبر، تتراجع قوته وتتشتت قدراته ويضمحل نفوذه وتدريجيًا وبفعل الذكاء وبمساندة امرأة يتقدم الشقيق الأصغر الصفوف ويصير هو القائد الذى يحقق أكبر العوائد للأسرة، تضاعفت الأموال إلى القدر الذى جعل

الأسرة كلها تتناسى ما حدث من مصيبة إنسانية ونعموا بالمال الكثير الذى لا يأتى إلا عن طريق رجل خان شقيقه وامرأة خانت زوجها ينفذ مخططاتها الذكية فى إدارة الشئون المعنوية للأسرة ومضاعفة الدخل.

وحتى الآن يبدو أن الشر هو الذى انتصر وأنه الأقوى وهو الذى يحقق النجاح والثروة، وأن الناس تجبن وتتراجع وتنهزم أمام الشر، بل ربما تتملقه بعد ذلك وتعترف بوجوده ما دامت تستفيد منه، والاستفادة تكون فى شىء واحد فقط هو المال!

●●●

الأشيـــــاء

فى الجو غيم، الهواء لم يعد عليلاً، وغير قادر على حمل عبير الورود، ولقاح الزهور، والشمس أضحت مضجرة، والقمر خَبَا منه الضوء، وأما النهار فشاحب والليل باهت والفجر قاتم، فشلتُ فى أن أضرم النيران فى مشاعرى لعلى أحس شيئًا.

حتى الألم فقدت الإحساس به، حاولت أن أنعش العقل بفكرة جديدة فأغلق أبوابه فى وجهى تمامًا، جاهدت أن أزُجَّ بعاطفة فى وجدانى فطردها شر طرْدَة، خَوَاءٌ فى الداخل والخارج، انعدمت الحركة، لا وزن للأشياء، القيمةُ انعـــدمت. إذن ما الجـدوى؟ لا جدوى.

وانتـهـز الشـيطان الفـرصـة، دعـانى إلى حـفلة خـمـر ونسـاء والكازينو يَعدُ بمال وفير.. حاول، جرب. الحياة لذيذة، لا تفقد الأمل، فى الخـمـر شـفـاء وفى النسـاء دواء، والمال يحـيى الموتى، حـاول، جـرب، الجنة على الأرض وليـست فى السـمـاء فـقط، سينتشى العقل بجرعة خمر، وسيرقص القلب بملامسة امرأة، وستـتـمـايل الروح بسـمـاع الطرب. أمـا المال فسـيـدهش كـيـانك وينفخك بالزهو ويتخمك بالقوة، حاول جرب، وحينئذ سيعود للجـو صفاؤه وستجد للهواء رائحة ولليل طعمًا وللنهار بريقًا وسيطلع عليك الفجر وقد بلغت النشوة منتهاها، فقمرك سيكون

مسكرًا مثل الخمر . أما الشمس فستردك إلى صوابك لتنتظر على أحر من الجمر مجيء ليل جديد .

فكرت فيما قاله لى الشيطان وتخيلت الجنة التى يعدُ بها فلم يهتز لدى شيء، أدركت أن ما ألم بى فوق المادة وفوق قدَرات الشيطان لا ينفذ إلى النخاع، بل لا يمس السطح أيضًا، شيء ما قد تعطل، مُوَلِّدُ الروح قد توقف فلم يعد يبث إحساسًا أو فكرًا أو عاطفة، نبع الحياة قد نضب فامتنعت جذور الشجرة عن الامتصاص وتوقفت عن ضخ ماء الحياة إلى الساق والأوراق فغابت عنها الثمار، والشجرة العقيم لا جدوى منها!

إذن، ماذا أفعل؟ لم يبق إلا الموت، وهل يموت الإنسان مرتين؟ وما جدوى موت الجسد بعد أن ماتت الروح؟ ذهب عنى الشيطان لأننى استعصيت عليه ليس ورعًا منى وإنما فشل منه . قلت لنفسى : أجوب الكون لعلى أجد دواء الروح وبلسم الحياة، أين أذهب؟ هل أتخذ دليلاً أم أترك النفس على سجيتها . ومن أين أبدأ؟ قلت لنفسى : فلأبدأ بعالم الأشياء، أشياء كثيرة كنت أحبها، لعلها ما زال فيها نبض يصل إلىَّ، لعلها ما زالت تشع ضياء يضيء القبو ويدفئ الجسد الميت، أشياء كنت أحبها وكانت تحبنى وكنت أداوم على زيارتها ومناجاتها، أشياء يراها الناس جمادًا وأعُدُّها حية تتفاعل وتتبادل مع محبيها الأشواق، أشياء هى الجمال بعينه، خلقت جميلة لعينى وأسبغتُ عليها جمال مشاعرى، جمال فوق جمال!

ركبت قطارًا طائرًا إلى المدينة الحسناء، كنت لا أراها إلا ضاحكة وليس فقط مبتسمة، ضحكاتها يصدر عنها صوت يفيض بالأنوثة، هى عندى امرأة هكذا إحساسى ناحيتها، تعودت أن تستقبلنى بالأحضان أول ما تطالعنى رائحتها تنتابنى دوخة بسيطة من شدة التأثر، ثم أبتهج، أروع لحظة هى لحظة دخولها، مطالعتها، مصافحتها، ثم احتضانها، ومن ثم شمها، تناديني فأقتحمها نتبادل كلمات الأشواق، أسمعها مثلما أسمع أى كائن حى، فهى كائن أكثر حياة، وإذا حدثتها فهى تسمعنى بل تتمايل وهى تسمعنى.

وقد نغنى معًا.. لها أغان كثيرة مشهورة هى وأهلها، لا ينقطع منها الغناء، فهى مدينة المرح، والأحلام والذكريات، ليلها أجمل من نهارها، ونهارها أجمل من ليلها، صيفها أجمل من شتائها، وشتاؤها أجمل من صيفها.

قلت أذهب إلى شاطئها، أعرفه رملة رملة، وأعرفه موجة موجة، إنها معرفة وثيقة، معرفة العشاق، ذهبت إلى نادى الغناء، سكر بلاخمر، تكفى الألفة والقديم من الألحان. ومنه إلى الشارع الطويل والجامع العتيق والقلعة العتيدة، ثم إلى الحى القديم، أجوب وأجوب، لعلى أنهض من موتى، أين ماء الحياة؟!، لم أجده فى مدينتى الأسيرة، كانت جرداء خالية من أى معنى، وكأنها غريبة، عرفت معنى الموت، الموت هو الغربة، ضمور القلب وخَوَاء الروح!

الموت أن تكون بلا تاريخ حينما ينمحى تاريخك، الموت هو قطْع الحبال بينك وبين كل مَن عرفت، الموت غرقًا هو أبلغ موت، هو الموت الحقيقى حيث تهبط إلى القاع لم تَرِدْه روحك من قبل فيبدو كل شىء غريبًا غير مألوف، الألفة هى أوثق رباط بالأشياء.

الألفة هى وليدة الحب، أحبَّ شيئًا تألفْه، وحين تلتقى به تطمئن، حتى رائحة البن تحبها، وتألفها والبارفان والألوان والأصوات، والضحكات والألحان والأكلات والملابس والأماكن.

حواسك لابد أن تألف شيئًا لتراه جميلاً وممتعًا ولكى تعود إليه مرة أخرى، أن تعود إلى شىء مرة أخرى فأنت ألفته، أى أحببته، أى هو يمتعك، أي هو جميل، أو هو أجمل شىء فى هذه الحياة. إنه عالم الأشياء، أشياء ترتبط بها، أشياء تلازم خيالك ومشاعرك وفكرك وضميرك، أشياء من الجماد ولكنها تصير من الأحياء.. فالشارع يتكلم والليل يهمس والألوان توشوش، والبحر يتنفس، والأشياء كلها تضحك وتبكى، تسعد وتحزن، تتحمس وتضجر، أنت تضفى عليها من شعورك وهى أشياء ليست منفصلة عن عالمنا الداخلى عالم الشعور والفكر والإحساس، نحن جزء من الأشياء وهى جزء منا، إنها وحدة الكون بكل ما فيه، تواصل عجيب وذوبان أعجب!

ووسيلة الترابط هى الألفة، والألفة حب، والاغتراب موت، لأنه انفصال عن الكل، انفصال عن الكون، وقبل أن تموت فإن الأشياء لديك تموت أيضًا تفقد وزنها، فتصير لا شيء، الأشياء تصبح لا شيء، إنها غريبة عنك، لأنك فقدت الألفة معها، وهذا مرض يسبق الموت، وهذا موت يسبق الغناء، فتصبح أنت أيضًا لا شيء والأشياء لا شيء فيصبح الكون لا شيء فنعود من جديد إلى نقطة العدم. عند نقطة العدم فى الماضى السحيق لم يكن هناك شيء، ولذا لم يكن هناك معنى، ثم خلقت الأشياء تباعًا، وتعارفت الأشياء فنشأت الألفة، فعرفنا الحب وعرفنا الجمال.

عدنا إلى نقطة العدم، لا أرض ولا سماء، بل فراغ، فراغ يتبعه فراغ، وفراغ يعلوه فراغ، لا حدود، ولا هواء، ولا توجد أدنى فرصة لبعث الحياة حيث لا توجد عناصرها. ولكن أين ذهبت الأشياء التى كانت موجودة من قبل؟ ربما لم تكن موجودة أصلاً، ومن يجزم بأنها كانت مو جودة؟! أم أنها موجودة فعلاً ولكن لأنها لا تتفاعل فيصبح وجودها كالعدم. مَن لا يتفاعلْ فهو غير موجود.

وأنا الآن لا أتفاعل مع مدينتى. إذن أنا غير موجود، أنا لا أتفاعل مع الأشياء والأشياء لا تتفاعل معى.. إذن أنا غير موجود، والأشياء غير موجودة وكأننا عدنا إلى نقطة العدم، وكلمة (وكأننا) تعنى الاعتراف بأننا كنا موجودين ولكن صرنا غير موجودين، كأننا عدنا إلى نقطة العدم لأن القلب لا ينبض والفكر تعطل والإحساس تبلد، فأصبح كل شيء بلا طعم ولا رائحة ولا لون ولا قيمة، أى ميت!

تركت المدينة، ولأول مـرة أتركـهـا بلا ألـم، كـانت أسـوأ لحظة حـين أغـادرها مـثلمـا كـانت أجـمل لحظة حـين أطالعـهـا، حـين دخولها، حتى الألم لم أعد أشعر به. . أين أذهب؟

جـــاءتنى فكـرة أن أذهب إلى مكان جديد حيث أشيـاء جديدة لم يسبق لى معرفتها وليس بينى وبينها ألفة، لا توجد علاقة سابقة، لا يوجد حب قديم.

سـافـرت إلى مكان جـديد أطؤه لأول مـرة، كل شىء جــديد. . داخلنى خوف، إنها بداية طيبة فالخوف هو نوع من المشاعر، والخوف شعور، يسبق الطمأنينة، لا طمأنينة بدون خوف سابق عليها. إذن نحن نخاف لنطمئن ولا شىء يطمئنك غير أن تألف وأن تحب.

طالعت الأشياء الجديدة، كـان كل شـىء حياديّاً، ولـم أتلق أى دعـوة لمزيد من التـعـارف، أنت عـابر ونحن عـابرون فى ذاكـرتك، سوف تنسانا وسوف ننسـاك، الذاكرة معان ومشاعر، وأنت لـم تثرْ لدينا أى معنى ولم تحرك أى شعور، وهكذا نحن أيضًا لم نَهْوَ فيك شيئًا، ستنطوى تلك اللحظة إلى الأبد وكـأنها لـم تكن، تصـور أن حـاضرًا يمـضى ولا يصـبح مـاضـيًـا، يا لـلعجب. إذن الـذى يصنع الماضى هو المشـــاعـر، الماضى هو حـاضــر ارتبطنا به، الماضى هو حاضر حفر شيئًا داخلنا، الماضى هو حاضر مدَّ بيننـــا وبينه رباطًـا لا ينقطع. إذن الماضى كيـان مـتفـاعل. . الماضى ينبض. . الماضى حياة. . الماضى يعنى أن حاضرنا كان له معنى وكانت لـه قيـمة. .

الماضى هو امتداد لألفة الحاضر، والألفة حب، والحب طمأنينة، أو الحب ألفة والألفة طمأنينة.

لفظتنى المدينة الجديدة بأدب، لم تطردنى ولكنها لم ترحب بى، ونسيتها فعلاً بعد أن تركتها، لم أعد أتذكر منها شيئًا واحدًا.

لا شارع ولا شجرة ولا نهر ولا بستان ولا رائحة، ولا حطام، ولا ليل، ولا نهار، لا شىء، لا شىء بالمرة!

وضاع الوقت الذى قضيته بها هباء، وأى قيمة للوقت إذا اقتصر على الحاضر ولم يتحول إلى ماض، قيمة الوقت فى أن نقول إنه كان، وبالتالى فلنا أن نتوقع أنه لن تكون هناك قيمة للمستقبل لأنه سيصير إلى نفس المصير.. أن يتبخر.. أن يصبح عدمًا!

ضاع منى الزمن أيضًا مثلما ضاعت الأشياء، وما الحياة إلا زمن وأشياء، ولم يبق إلا أن أخرج من الأرض إما إلى قاع البحر وإما إلى عَنَان السماء لعلى أجد أشياء أرتبط بها فتعود إلىَّ الحياة!

●●●

تناقضات عاطفية

من قال إن كل الجراح تبرأ . . إن منها ما يميت ومنها ما يستمر حتى بعد الموت . . يموت الإنسان ويظل ذلك الجزء المجروح حيّاً من بعـده لا يكف عن الأنين من الألم . . حـتى الموت لا يهـزم الجراح!

وهنا تسقط دعوى أن الزمن يلملم الجرح أو أن الزمن شفاء، والشفاء يكون عن طريق النسيان . فلا شيء ينسى حتى وإن التأم الجرح فإن موقعه يظل سخيّاً بالألم . . ويشتد الألم فى حالتين: الأولى، حين تحل الذكرى السنوية لمسببات الجرح . والثانية، حين يتعرض الإنسان لموقف مشابه . . الموقف الجديد يشعل النيران فى الجرح القديم فيبدو وكأنه جديد من شدة الألم!

والذكريات أسوأ من الحدث ذاته . . ففى الذكريات اجترار . . فى الذكريات تجميع لكل ما هو سيئ واستعادته . . تصبح الصورة مكتملة . . بانوراما . . ومن ذلك يمكن الوصول إلى الحقيقة . . وبعض الحقائق تدعو لليأس . . . ولا أمل فى الإصلاح . . ولا أمل فى النسيان، ولا طريق إلا التناسى، أى بذل جهد إرادى لتبدو أمام نفسك أنك نسيت، والحقيقة أنك لم تنسَ وإنما تسدل ستارة واهية على الأحداث فتراها وكأنك لا تراها!

ستارة كاشفة فاضحة ولكنها ستارة تعوق الرؤية الكاملة الواضحة . . وما لا تراه مكملاً أو واضحًا فكأنك لا تراه ولكنه يظل موجودًا . . إذن هو موجود ولكنك لا تراه . . هذه هى المعادلة أو هذا هو التناسى . . هو نوع من التغليف الردىء . . فأنت تحمل أسفارك على ظهرك ولا تراها ولكنك تعرف محتواها . . وهذا هو الفرق بين الإنسان والحمار . . الإنسان يعرف والحمار لا يعرف . . ولكن كليهما مثقل بحمله . . وما أشد أحمال النفس وأثقلها . . إنها تشد الإنسان إلى الأرض حتى يكاد يقع . . ولكن الرحلة لابد أن تمضى إلى حتفها . . لابد من مواصلة الطريق . .

والصـــراع الأزلى هو بين العـــقل والقلب . . بين الفكر والوجدان . . بين الحكمة والهوى . . ويغلبنا الهوى ويشدنا القلب ويدمينا الوجدان . . العقل يصدر حكمًا غير قابل للنقض . . مبنيّاً على حقائق لا تنكر . . ويأتى القلب ليفسد كل شىء .

فالهوى غلاب . . وتبدأ رحلة مصالحة النفس لكى تغفر ، أو لعلها تنسى دون أن تغفر ، أو لعلها وهو أضعف الإيمان تتناسى . . والذكريات الحلوة تشفع .

الشفاعة مطلوبة فى مثل هذه الأحوال . والشفاعة معناها أن الإنسان لابد أن يخطئ لأنه ضعيف . . ولهذا فهو يحتاج لمن يتوسط له . يحتاج إلى شفاعة قوة أكبر . . يحتاج إلى كرامات سابقة تخفف من هول الحقيقة الواقعة . يحتاج إلى من يطلب

السماح من أهل السماح، وإذا لم يكن السماح ممكنًا فلننح الأمور جانبًا ونكمل المسيرة . فلندفعها بعيدًا عن منطقة التذكر المباشر، فلنحبسها فى الغرفة المظلمة من مستودع الذكريات، فلنغلفها حتى وإن كان التغليف رديئًا ولكنه على الأقل سيعوق الرؤية المباشرة والواضحة .

سيعوق الاجترار الملح . . سيعوق أن نربطها بأحداث مشابهة حتى لا تبرز حقيقة دامغة لا تدع أى فرص للتناسى بل تؤكد أن السيئ يظل سيئًا لأنه طُبع على السوء . . هكذا خلقه الله بنفس ضعيفة متدنية .

فى هذه الليلة مدت ذراعها إلى أقصاها فلم تجده بجوارها فتصورت وهى ما زالت فى شبه غيبوبة النوم أنه مسافر، ولكن سرعان ما استيقظ عقلها بالكامل، لتتذكر أن آخر مرة رأته فيها كانت منذ ساعات وهما يدخلان الفراش معًا، وأنه تكاسل عن مداعبتها كالمعتاد . . قالت : ربما ذهب للحمام . . انتظرت وقتًا كافيًا ولكنه لم يعد . . لم تشأ أن تنادى عليه حتى لا يستيقظ مَن فى البيت . . ساورها قلق له مسبباته . نهضت فى اتجاه معين . . وقفت على باب غرفة بعينها تتصنت سمعت حركة ربما أنفاسًا تتردد بسرعة من الصعب سماعها إلا إذا توقعتها . استعصى الباب على الفتح حين حاولت . . صرخت . . وسرعان ما فتح الباب من الداخل خشية الفضيحة . . فاندفع زوجها إلى الخارج بينما ظلت قريبتها

التى جاءت لزيارتها قابعة على الفراش مطأطأة الرأس . . هذه كانت اللحظة الوحيدة المثيرة فى القصة، يفتح باب غرفة مغلق على رجل وامرأة معًا لا يوجد مبرر لوجودهما معًا داخل حجرة مغلقة . . مغلقة من الداخل لتمنع سهولة اقتحام الحجرة لأن من كانا معًا بالحجرة يودان حجب شىء معين عن الأعين . . حاول الزوج أن يبرر موقفه ولكن الصدمة أفقدت الزوجة القدرة على السمع ! . .

وتركت البيت أربعة أشهر كاملة . . وبذل هو جهودًا مضنية حتى استطاع أن يستعيدها للبيت .

وقبل أن نستطرد وربما لا يتوقع أحد أى أحداث مثيرة تأتى بعد ذلك، إلا أن الذى نريد أن نوضحه أن هذا الزوج لم يكن عادياً .

إنها قصة حب طويلة وحقيقية . . علاقة حب أثمر زواجًا وأطفالاً وبيتًا مستقرًا وحياة أحلى من العسل ومستقبلاً مشرقًا . . كل ذلك على مدى سنوات اقتربت من العشرين . . والحق يقال إن الزوجة كانت جميلة وذكية ومتفانية، والغريب أنه هو الذى بدا عليه تقدم العمر ففقد قدرًا غير قليل من جاذبيته وتأثيره على الجنس الآخر فلا يعد مطمعًا لأى امرأة لأى غرض . .

هذا بالإضافة إلى أن سمعته قبل الزواج كان يشوبها الكثير وخاصة فيما يتعلق بعلاقته بالجنس الآخر، إلا أن الزوجة العاشقة

تغاضت عن كل ذلك لأنه حدث فى الزمان الماضى قبل أن تلتقى به .

المهم أنها عادت إلى البيت واستأنفت الحياة . . والحقيقة أن الزوج بذل جهـــدًا مضنيًا لاسترضائهـــا لأنه كان يحبهـــا حقّاً ، ولا داعى لأن نخوض نحن فى تفسير خيانته لها رغم أنه ينكر بشدة الخيانة ، وأنه ما خانها منذ أن تزوجها رغم ولعه بالنساء . . ولقد قدم مبررات ساذجة لا تصدق لوجوده فى حجرة قريبة زوجته فى هذا الوقت المتأخر من الليل .

أما هى أى الزوجة فلم تغفر أبدًا ولم تنس أبدًا وكانت تقول لصديقتها التى عرفت بالقصة كيف أنسى واقعة رأيتها بنفسى . . إن ما نراه بأعيننا هو الحق . . أما ما نسمعه فيحتمل أنه باطل . . ولقد سـمعت عن سلوكه المعوج الكثير ولكننى كنت لا أصدق . . والملابسات كلها تدينه . . ولقد حاولت أن أخدع عقلى وأصدق أيّاً من ادعاءاته فلم أستطع . . تسألينني يا صديقتى : لماذا عدت إليه؟! . . والإجابة : إننى لا أعرف . . ربما لأننى ما زلت أحبه . . وكيف أحب من خاننى؟! فأقول : إننى أحبه أحيانًا أحبه كثيرًا وأكرهه قليلاً وأحيانًا أخرى أكرهه كثيرًا ، وأحبه قليلاً . ولكنه خائن خائن . . لا أستطيع أن أراه إلا خائنًا !

لقد بذلت جهدًا خارقًا لكى أسامحه فلم أستطع ، ولم أستطع أن أنسى . . ولكنى أتوِّه عقلى . . آخذه بعيدًا . . أحيانًا أسيطر على

هذا العقل وأنسى فى اللحظة الحاضرة ما فعله . . تغيب عن مخيلتى صورته وهو خارج من الحجرة وصورتها وهى جالسة على السرير . .

أحاول أن أندمج فى لحظة الحب معه . . وخاصة وأنا أراه يبذل الجهد لإرضائى . وخاصة أننى مقتنعة فعلاً بأنه يحبنى . . أصدقه فى لحظة أنه لم يخنى . . ولكنى أعود فأتذكر التفاصيل المخزية وأضم إليها كل القصص الأكثر خزيًا التى حكيت عنه . . إن له تاريخًا أسود يؤيد أى سلوك انحرافى يصدر عنه الآن أو فى المستقبل .

لا أحد يتغير وإنما تغيُّر الظروف هو الذى يجعل بعض الميول والطباع تتوارى ويجعل البعض الآخر فى منطقة الضوء . الانحراف مطبوع على الجينات ولم يستطع أحد حتى الآن أن يغير جيناته .

ولقد أصبحت أشك فى كل سلوكياته . . فهو كاذب ولكنه يجيد فن الكلام . . يجيد تزويق حديثه . يمتلك قدرة أن يجعلك تصدقينه . . وكنت فى الماضى أصدقه . . ولكنى الآن أتشكك فى كل كلمة يقولها . . ولقد أرهق أعصابى كثيراً بمتابعته ومراقبته . . استنفد كل طاقتى حتى كدت أموت . فأصابتنى اللامبالاة . . ولقد توصلت إلى صياغة أراحتنى . . فليفعل ما يشاء . . هذا أمر لم يعد يهمنى لقد أغلقت باب الغيرة تمامًا . . حقّاً إننى لا أغار عليه . . فاسترحت كثيراً . . أصبحت أنام بعمق . . أصبحت أستمتع باللحظة ولا أفكـــر فيما قبلها أو فيمـا سيأتى بعدها . . لو غاب

عن ناظرى لا أهتم . . لو تأخر فى مكان مجهول لا أسأل . . أصبحت لا أتحقق من رواياته بل أدعى أننى أصدقه . . قد تسألينني يا صديقتى : كيف وصلت إلى هذه الحالة؟!

أقول : لقد تعبت . . أرهقتنى شكوكى . . أتعبتنى متابعته . . ذبحتنى مشاعرى المتناقضة نحوه والتى هى مزيج من الحب والكراهية . . كان علىَّ أن أعيش معه بكل أحاسيسى، وهذا معناه أن أسامحه وأن أنسى تمامًا أو أتركه دون رجعة . . لم أستطع هذه أو تلك . . لا أستطيع أن أنسى ولا أستطيع أن أتركه . . وبذلك كنت أموت فى كل لحظة . . وكرد فعل طبيعى للجهاز العصبى ليدافع عن حياتى فإنه أصيب بالتبلد . . فليفعل ما يشاء بعيدًا عنى، ولكنى لا أريد أن أرى شيئًا بعينى . . آه من رؤية العين . . هذا هو ما يذبح حقيقة! . .

إن ما تراه عيناك حقٌّ إلا إذا كنت مجنونًا ومصابًا بالهلاوس البصرية، أى ترى أشياء لا وجود لها . . ويوم أن رأيته مع قريبتى خلف حجرة مغلقة بعد انتصاف الليل لم أكن مجنونة بل كنت أثق به وأحبه إلى حد الجنون . أما الآن فقد برئت من الجنون ولكننى أحبه أن يظل معى لأنى تعودت أن أرى الدنيا معه . تعودت على وجوده وأسلوبه وطريقته . . تعودت على أنفاسه . . لم أهتم برجل آخر غيره، ولا أستطيع أن أكون لرجل آخر . لقد حاولت على مستوى التخيل فلم أستطع .

إنى لا أصلح لأى رجل آخر غيره . . المرأة لا تكون إلا لرجل واحد إلا إذا كانت شاذة . . والمرأة تعتاد الرجل نفسيّاً حتى وإن خانت بجسدها فلا يملك فكرها ومشاعرها إلا رجل واحد لا يتغير ولا يتبدل . . والمرأة تحب الاعتياد وتميل إلى الاعتمادية ولا تتحول مشاعرها إلا ببطء شديد . . ولذا فالمرأة ليست تعددية فى مشاعرها . . فهى لرجل واحد بمشاعرها وفكرها حتى وإن عاشرت عشرات الرجال .

هذه هى مشكلتى يا صديقتى ، والتى لا يستطيع أحد أن يتفهمها لأن كلها متناقضات . . كيف أعيش معه ولا أغار عليه؟ كيف أسعد بملامساته وأنا لا أثق به؟ كيف أأتنس بصحبته وأنا أحتقره؟!

كيف أشتاق إليه وأنا أراه مجرمًا؟! كيف أستمع إليه وأنا أعرف أنه كاذب؟!

أستريح إذا ابتعد ، وأتألم إذا غاب . . أفرح لذهابه وأشقى بامتناعه . . أهنأ برؤيته وأشمئز لتذكره!

إنها حالة من فوضى المشاعر وعشوائية التفكير .

والطبيب النفسى يرى أنه تعلق مرضى واعتمادية عاطفية لسنوات طويلة وعدم القدرة على البداية من جديد لتقدم العمر . وأنا لا أراه تعلقًا مرضيّاً ولكنه ارتباط له جذوره العميقة ضاربة فى سنوات العمر ، أو أهم سنوات العمر ، تشكلنا فيها معًا وفق صياغات ترددت أفكارها الأساسية داخلنا فى تناغم واتفاق

فصبغت الوجدان وأفرزت أسلوب حياة وأقرت الأساسيات وأكدت مفاهيم ومعانى، فأصبح من المتعذر أن ينسجم العقل وأن يميل القلب وأن تألف الروح مع إنسان آخر. وأنا أعرف أنه هو ذاته لا يستطيع أن يعيش مع امرأة أخرى، ولذلك فقد كتب علينا معًا العذاب ولا مفر إلا عن طريق اللامبالاة، وهذا هو المرض الحقيقى!

●●●

امرأة وثلاثة رجال

متى يزرع احتياج ما لدى الإنسان. وكيف تتوزع الاحتياجات على البشر؟ ولماذا يكون احتياج ما ملحّاً لدى إنسان فيدفعه أحيانًا إلى حماقة أو انفعال جنونى نحو فعل ما؟ وكيف يتخلص الإنسان من تلبية داعى تلك الاحتياجات التى تسبب له حرجًا أو تعرضه لمخاطرة أو لارتكاب معصية؟ وهل ينجح الإنسان إذا حاول؟ أم يظل عبدًا لاحتياجاته الضاغطة التى تزأر من أجل أن تلبى ولا يستطيع منها فكاكًا أو علاجًا!! وما مدى مسئولية الإنسان أمام ربه أو أمام القانون إذا ارتكب فعلاً تلبية لاحتياج ما يتعارض مع قيمة مفروضة ونواه معروفة؟

يا لتعس الإنسان وضعفه وقلة حيلته وهوانه، إنه عبد ذليل أمام احتياجات ونوازع وميول وغرائز، ولا يعرف مصدرها، ولا يقدر على مقاومتها، ولا يدرى كيف يتخلص منها!

سألت نفسى هذه الأسئلة وعشرات مثلها وأنا عائدة إلى بيتى اليوم.. وفى كل يوم لعجبى من أمر نفسى وغرابة أحوالى ويأسى من أفعالى وعجزى أمام احتياجاتى ورغبتى فى صلاح حالى.

وحكايتى أننى أعرف ثلاثة رجال فى وقت واحد ولا أستطيع الاستغناء عن أى واحد منهم، وقبل أن أخوض فى هذه الحكاية فلأعرف نفسى أولاً، أنا فتاة فى التاسعة والعشرين من عمرى.

أنتمى إلى الطبقة الاجتماعية المتوسطة وأعمل فى وظيفة حكومية، وبالطبع تصبح متوسطة القيمة وتكشف عن تواضع مهاراتى المهنية، ورغم أن شكلى يطلق عليه أنه من النوع المقبول فإننى ذكية وظريفة ومسلية وأعرف أشياء كثيرة فى الحياة من قراءتى الغزيرة ، ومن كم الأفلام العديدة التى شاهدتها، فأنا مولعة بثلاثة أشياء: القراءة والسينما والرجال!

أعيش بمفردى مع أمى المريضة والتى أقوم على خدمتها كلَ الوقت باستثناء الساعات التى أقضيها فى عملى وتلك التى أسرقها من الزمن وأقضيها مع أصدقائى من الرجال. . مرضها فرض نوعًا من الكآبة على البيت ولكننى لست مكتئبة، إذ ما زلت أستمتع بالحياة وأطلب المزيد. مات أبى وأنا فى الثالثة وعاشت أمى لرعايتى دون زواج، ليس لى أخوة أو أخوات، وكذلك لا عم ولا خال، وبذلك أريد أن أقول إننى لم أعش مع رجل فى طفولتى، لم أعرف كيف يعيش الرجال فى البيوت، وما دورهم فى الحياة، وماذا يفعلون مع النساء والأطفال؟

الرجال كنت أراهم فى الشارع فقط وأندهش لهم، لم أر رجلاً عاريًا أو نائمًا أو وهو يأكل، ولذا تكوَّن لدى حب استطلاع شديد لأتعرف على حياة الرجال، كنت «أبحلق» فى أى رجل تقع عليه عيناى، وكذلك أسأل كثيرًا عن أخبارهم وأسرارهم، وحين خرجت من أسر الطفولة كنت أنتهز أى فرصة للحديث مع رجل. . أى رجل ألقاه فى أى مناسبة!

ولهـــذا السبب تعرضت لمشكـــلات كثيـــرة صـــادمة ولكنهـــا لم تفقدنى حبى للرجال، وإنما أصابتنى بالبرود، لقد اكتشفت حين اكتمل نضجى الأنثوى أننى لا أنفعل جنسيآ، أو إذا أردت الدقة فإن رد فعلى الجنسى تجاه محاولات الرجل كانت ضعيفة واهية لا تكفى لتحقيق متعة متبادلة، ولذا أحجمت عن أى سلوك جنسى، وكان ذلك تناقضًا واضحًا فى حياتى ما بين ميل جارف للاقتراب من الرجال ومصادقتهم، وبين رفضى لأى علاقة جنسية.

وأريد فى البداية أن أنفى عن نفسى تهمة الميـل لنفـــس الجنـس أو أى شذوذ، فأنا طبيعية تمامًا إلا أن ميلى للجنس محدود جدآ.

وصادقت كثيرًا من الرجال، ومن كان يطمع فى أكثر من حدود الصداقة كنت أفر منه، صداقة وحب واستظراف نعم. أما الجنس بشكله المتكامل فلا.

لم يكن لى صديقات بل كل هوسى كان بالرجال، لم أكن أفرق بين رجل طويل أو قصير، كثيف الشعر أو أصلع، وسيم أو قبيح، ضعيف أو قوى، موهوب أو عادى، مشهور أو نكرة، الرجل الوحيد الذى لم أكن أقترب منه هو الرجل الغبى البليد الخامل التافه.

ولكن عمومًا فإن الرجل هو الرجل، أحب كونه رجلاً، أرى الرجل هو الأصل فى الحـيـــاة، أرى المرأة لا شىء بدون الرجل، الرجل هو المعنى والقيمة، الرجل هو الجمال الحقيقى وهو السيد، وهو القائد، والمرأة يجب أن تتفانى فى خدمة الرجل وإسعاده.

ولذلك حفظت كثيراً من القصص والأشعار والنوادر والأغانى ولم أكن أكف عن الكلام والضحك، وكان الرجال يسعدون بصحبتى جداً. . ينسون همومهم ويسمعون أشياء جديدة، ويشكلون حياتهم بطريقة مختلفة، وكنت أنا أستمتع بصحبتهم وربما أكثر من درجة استمتاعهم.

شىء واحد لم أقدر عليه وهو الإخلاص لرجل، لم أكن مخلصة، كنت أعرف أكثر من رجل واحد فى وقت واحد، على الأقل أعرف رجلين وربما ثلاثة، فى الغالب ثلاثة، إذ لم يكن لدى الوقت لأربعة، وأنا معذورة، فكل رجل مختلف عن الآخر، كل رجل له طعم ومذاق مختلف، شخصية مختلفة، فكر مختلف.

كل رجل وراءه حدوتة مختلفة، تاريخ مختلف، بل أسطورة مختلفة، فكل رجل أسطورة، يكفيه أنه رجل، ما أروعها من كلمة.

لم أعرف الإخلاص أبدًا فى حياتى لرجل واحد، وأتصور أننى لن أعرفه، سأظل هكذا امرأة لكل الرجال، وليس لى حيلة فى الأمر، حاولت ولكن أصابنى الملل، فقدت الإثارة، شعرت بالحرمان. وهنا عرفت أن احتياجاتى متنوعة، أحتاج شيئًا ما من كل رجل لا يستطيع أن يعطيه لى رجل آخر، كل رجل ماهر فى أمر ما، ولكل امرأة ميزة ما، وكل منهما يقبل عيوب ومزايا الآخر معًا، مناطق القوة تعادل مناطق الضعف، ولا أحد كامل ولا يستطيع

الإنسان أن يحصل على كل شيء والإخلاص ينبع من الرضا ومصدره النفس المطمئنة ويهب الإنسان السكينة.

ولكننى فى الحقيقة قلقة، غير راضية، غير مطمئنة، لا أعرف السكينة ولا أعرف الشبع والارتواء فدائمًا جائعة عطشة، احتياجاتى متعددة متنوعة مختلفة وأيضًا ضاغطة وملحة تقهرنى لتلبيتها، فأندفع وأتهور، أسعى لرجل يعجبنى، أخلق الظروف للتعرف إليه، أبذل مجهودًا، أسعد إذا التفت إلىَّ، وأبذل جهدى لإسعاده وإرضائه فيرتبط بى، يتعلق بى، قد يزداد تعلقه ويفكر فى الارتباط بى أو قد يفكر فى تعميق العلاقة إلى المستوى الجسدى، ولكننى اكتسبت مهارة أن أجعله يعرف الحدود التى يقف عندها، فإذا رفض انصرفت عنه.

هكذا عشت حياتى منذ السادسة عشرة إلى السادسة والعشرين. وفى السنوات الثلاثة الأخيرة تثبت فى حياتى ثلاثة رجال، ربما لأن كل واحد منهم لبى بشدة احتياجًا معينًا عندى ورغب فى الاستمرار معى بشروطى، ولذا لم أتخل عن أحد منهم خاصة بعد أن كبرت سنى وكان لزامًا علىَّ أن أتزوج، لأننى فى الحقيقة أريد أن أكون مسئولة عن أسرة، أريد أن أكون زوجة لرجل وأمًا لمجموعة من الأطفال، أريد أن أعيش هذا الدور المهم فى حياة المرأة، فالمرأة خلقت لأن تكون زوجة وأن تكون أمًا وليس لأى شيء آخر، وأنا أقول هذا الكلام بوضوح وإصرار لأى امرأة تتصور

أنها ستنجح فى أشياء أخرى، من تترك دورها كزوجة وكأم فلن تنجح فى أى دور آخر.

ولذا فالرجل الأول فى حياتى الآن هو الرجل الذى سأتزوجه، وهو يصلح لأن يكون زوجًا، لقد لبى عندى احتياج المرأة لأن يكون لها زوج، إنه الاحتياج للسكن، احتياج للاستقرار، أشعر بأنه لن يتركنى أبدًا، أشعر بأنه سيرحمنى فى أوقات ضعفى، أستطيع أن أكون على حقيقتى معه، لن أبذل جهدًا زائدًا لإرضائه.. يقبلنى كما أنا بعيوبى وحسناتى، لن يملنى ولن أمله، سيكون موجودًا دائمًا.. لن أصاب بالحيرة والبلبلة معه، بل كل شىء أستطيع أن أتوقعه وأن أحسبه وستكون توقعاتى وحساباتى سليمة، وذلك فى حد ذاته سيكون كفيلاً بزوال القلق.

ما أروع أن تكون متأكدًا من أن توقعاتك ستحدث وأن حساباتك تصدق، إن هذا سيجعلنى أنام بعمق، ما أحلى النوم بعمق، وما أجمله نومًا بلا كوابيس. هذا الرجل سوف يسامحنى إذا أخطأت، هذا الرجل لن يجد غضاضة فى أن يستعطفنى إذا حاولت أن أهجره ولن أهجره.

إنه بسيط غير متكلف لديه حس دينى عميق وليس لديه طموح مجنون، هادئ متزن، مخلص صادق أمين، هذه هى صفاته ولكن ليس بشكل مطلق، كما لديه الحد الذى يسمح بإقامة حياة زوجية مستقرة، وهذا ما أحتاجه بالضبط، أو بمعنى أصدق هذا هو واحد من احتياجاتى والتى لباها لى هذا الرجل بالذات.

أما الرجل الثانى الذى ما زال مستقراً فى حياتى منذ ثلاث سنوات فهو رجل كبير وإن بدا شاباً فى روحه وقوته، أقصد قوة إرادته وصلابته، والأهم عندى فيض حنانه واهتمامه، عمره تجاوز الستين بقليل، ميسور الحال، مثقف أتعلم منه، لديه شيء جديد يقوله دائمًا، لا يمكن أن تشعر معه بالملل، متجدد كل مرة يأتى بجديد، حياته متنوعة، ولكن الأهم عندى حنانه، إنه يحتوينى، يشعر بى إذا كنت مرهقة أو متبرمة أو حزينة إنه يصل إلى أعماق نفسى بيسر وسهولة، وكم هو شيء رائع ومريح أن يعرفك إنسان إلى هذا الحد، إن لذلك مذاقًا خاصاً. . مذاقًا حلواً . . هذا الرجل هو الوحيد الذى أستطيع أن أنام وهو جالس أمامى، وهو الوحيد الذى أدعه يربت على كتفى، هو الوحيد الذى أدعه يطعمنى بيده، هو الوحيد الذى يأتينى بهدايا كثيرة وثمينة، إننى أسبح بحرية تامة فى بحر حنانه، إننى أتغطى إلى قدمى باهتمامه، إننى استدفئ وأستنير بشمسه الساطعة دائمًا، إننى معه أشعر بالحماية الكاملة من تقلبات الزمن. . وتلك إحدى احتياجاتى الكبرى.

أما الرجل الثالث فقد كان يصغرنى بثلاثة أعوام. . شاب قوى فى جسده ووسيم ليس له عمل ثابت. . كثير الضحك شديد المرح منفلت الأعصاب يثور لأتفه الأسباب لا يقرأ كتابًا، ولكنه يتمتع بلمعان ذهنى عجيب وحب للاكتشاف وثقة عالية بالنفس واعتزاز شديد بكرامته. بدأ معى انطلاقًا من قناعة لديه بأننى سأجثو على ركبتى أمامه ليقبلنى عنده، تعرفت إليه حينما اعترض طريقى شاب

فضربه بقسوة استفزت لدى مشاعر جسدية نائمة، شكرته ومضيت معه، ومن يومها وأنا لا أستطيع أن أتركه بل هو لن يسمح لى بأن أتركه، يغار علىَّ بشدة، سيقتلنى لو عرف أننى على علاقة برجلين غيره، كذبت عليه مرة فصفعنى على وجهى، والغريب أننى لم أغضب منه بل شعرت بسعادة إذ كانت المرة الأولى التى أتعرض فيها للضرب من رجل. إنه يعرف عنى كل شىء، يتدخل فى تفاصيل حياتى، يفرض رأيه، لا أقوى على معاندته، أستجيب لكل طلباته إلا شيئًا واحدًا عرفه عنى واحترمه وهو موضوع رفضى للجنس، إنه أقوى شخصية عرفتها فى حياتى.

بمقاييس المرأة اليوم هو رجل حقيقى، وبمقاييس الفتاة العصرية هو فتى الأحلام، وبمقاييسى أنا فإنه لا يمثل إلا بعدًا واحدًا وهو القوة وبالذات لحماية امرأة، للذوذ عن بيت، لصد العدوان لتأديب الباغى وعقاب الظالم، هو الرجل الوحيد الذى أخاف منه ولا أعصى له أمرًا، ولكننى لا أستطيع الاكتفاء به لأنه رجل ذو بعد واحد. . ليس مصدرًا للاستقرار وليس مصدرًا للحنان، ولكنه أكثر الرجال قدرة على إشعارى بأنى أنتمى إلى جنس يختلف تمامًا عن جنس الرجال أى أنتمى إلى عالم الإناث!

تسألنى عن ضميرى فلا أدرى بماذا أجيب، تسألنى عن إرادتى فلا أستطيع أن أدلك عليها أمام ما يجتاحنى من رغبات تلبية لاحتياجات. . تسألنى عن سعادتى فأقول لك إننى أستمتع ولكن

شيئًا ما يعوق طريقى نحو اكتمال سعادتى . . تسألنى عن المستقبل فأقول لك إننى لا أشغل نفسى إلا بأمر يومى . . تسألنى عن حظى من الألم فأقول لك إننى أمسح عليه بعلاج سطحى فيخف مؤقتًا . . تسألنى عن حال نومى فأقول لك إننى أنام بعمق . . تسألنى عن درجة اكتئابى فأقول لك إننى أضحك كثيرًا، تسألنى عن عذاب النار فأقول لك إن الله غفور رحيم . . تسألنى عن أملى فى الجنة أقول لك أنا لم أرتكب أيّاً من الكبائر وقلبى عامر بحب الله . . تسألنى عن تطلعى للشفاء من حالتى فأقول لك إننى يائسة تمامًا ولكن ليس إلى حد الانتحار!

●●●

اثنان على الأرجوحة

كرسى الأرجوحة جعل لاثنين . . وكل كائن حى مزود بأجهزة الحب خلق منه اثنان . . الحب صنيعة اثنين وممارسته هى ما فعله اثنان .

وعملية الخلق بدأت بواحد أعقبته واحدة فصار اثنين . . خلقت الأرض لاثنين أو خلق اثنان للأرض . . بدأت الحكاية برجل انبعثت منه أنثى . .

لم تكن مصادفة ولكن بترتيب من حكيم عليم ، فصار ناموس الخلق قائمًا على جنسين ذكر وأنثى لا ثالث لهما . . ومن تزاوجهما تولد إناث وذكور . . والتزاوج هو حب وممارسة لهذا الحب . . ممارسة الحب حب . . فعل حميمى . . يؤكد المودة ويبعث الأمان ويشيع الدفء ويهب السرور ويعطر الهواء ويطلق الألحان ويضخ الدماء ويملأ المصباح بزيت يشتعل بنار الوجدان فيثير نورًا يكشف عن عالم ساحر متخم بالأسرار .

والسر الأعظم يكمن فى ذلك الاحتياج الملح داخل كل منا ليلتقى بشريكه رفيق الرحلة ونصفه الآخر ولا كتمال إلا به ولا معنى إلا فى ظله ولا بهجة إلا من خلاله ولا ذكرى وذاكرة إلا عنه وهو القاسم المشترك . . يأيها المخلوق من أجلى . . اقترب اقترب . . التحم . . ذُبْ وامتزج . . انصهر واتحد . . أنا لك . . كلى

لك . . أنت لى . كلك لى . . أنت محورى وأنا محورك . . أنا جزء من كل ، وأنت جـزء من كل ، وأنت وأنا نكون هذا الكل . . الكل فى اثنين . . كل شىء من أجل اثنين . وفكرة الأرجوحة من أجل أن يمرح اثنان معًا .

ولم أسأل يومًا : لماذا خلقنى الله أنثى وخلقك أنت رجلاً؟ ! أنا قانعـة بنوع جنسى ومقـرر لى من قـبل بدء الخلق أن أكـون أنثى . . ولا أتصور أن أكون ذكرًا . . ويبدو أن صفة أننى إنسان تعلو فوق نـــوع الجنس فحين تكون إنسانًا لا فرق أن تصبح ذكرًا أو أنثى . . أو نظرًا لأنك سـتلتـقى بشـريكك والـذى هو من جنس مـخـتلف وتتوحد معه فهذا يجعلك تشعر بأنك ذكر وأنثى معًا . . فلا شىء يتحقق إلا من خلالكما معًا .

فاللذة لا يصنعها إلا اثنان معًا . . والحب لا يكـون إلا من خلال اثنين . . إذن لا فـرق فى أن تصـبح ذكـرًا أو أنثى . . بل أنا لا أكـون أنثى إلا من خـلال رجل . . كينونتى يصنعها رجـل . . بل الحمد لله الذى خلقنى أنثى لأحب رجلاً . . لأهب حياتى لرجل . . لأستمتع بصحبة رجل . . لأتزوج رجلاً وأنام بجواره ويرعانى وأقوم على خدمـته وأشاغبـه فأخربشـه فيحتـوينى . . إنه الرجل الذى يظهر إبداعـات الأنثى ويسـتـفز مكرها ويعـرى جنونهـا فتـجـتهـد فى أن تستعصى على فهمه وتستمتع بشبقه وشغفه وتفتنه وتحيره وترغبه ثم تمتنع ثم تقترب . . فيدرك سحرها ولا يعرف إلا بعضًا من سرها . . وللأسرار سحر خاص!

ولذا فأنا سعيدة بأنوثتى وبى حنين لأن أكتمل . وحين رأيته فى الحديقة تسارعت دقات قلبى ووقعت من على الأرجوحة التى كانت تهزنى وحدى فأغاننى على الوقوف وأجلسنى بجواره ودفع بالأرجوحة إلى الأمام ثم أخذتنا إلى الوراء ثم إلى الأمام فدارت رأسى وملت إلى كتفه ولم أستيقظ من الحلم إلا بعد أن خطبنى ثم تزوجنى، وهكذا اكتملت . . ولكننى لم أحبل، انتظرت وانتظرت ولكن الله لم يشأ . أثور أحيانًا وأهدأ، أعترض وأقبل، أحتج وأستسلم، أتمرد وأرضى، حرمت من نصف زينة الحياة . أما النصف الآخر فقد كان وفيرًا . . وكان كريمًا . . حاول أن يعوضنى عن عدم قدرته على الإنجاب .

جبنا العالم شرقًا وغربًا، لا نفترق أبدًا إلا من وقت أن يعمل، تعودنا أن نكون وحدنا . . لم نكن نحتاج لمن يؤنسنا، نشعر بالامتلاء والشبع والارتواء حين نكون معًا . . لا يساورنا الملل إلا حين يبتعد أحدنا عن الآخر فيهزنا الاشتياق ويتبدد الملل حين اللقاء . . وكنا لا نكف عن الكلام . . كلام . . كلام . . كلام . . ولم أكن أدرى من أين يأتى كل هذا الكلام . . من موضوع إلى موضوع . . ومن حكاية إلى حكاية . وكنت أقرأ وجهه بسهولة . . أما هو فقد تخصص فى قراءة صوتى فيعرف أننى مكدرة أو مسرورة، وأنا أستطيع أن أعرف أنه مكدور أو مهموم . تواصلت أحاسيسنا مثلما تواصلت روحانا . . فإذا كنت فى آخر العالم . . أشعر مثلاً بأنه يتألم من بطنه أو أسنانه ويشعر هو بأننى محمومة

أو خائفة فيتصل تليفونيّاً ليطمئننى أو ينصحنى بدواء . . وكنت فى البداية أندهش . أما الآن فأصبحت متيقنة أن الأرواح تشعر ببعضها من على بعد .

وذات يوم شعرت بأنه يتألم من صدره فاتصلت به فى عمله فطمأننى ولكن صوته كان واهنًا وأنفاسه متقطعة فأسرعت إلى مكان عمله فوجدت أنهم سبقونى به إلى المستشفى . . تراكم إرهاق ستين عامًا وهموم ألف عام سد شرايين قلبه . وأجريت جراحة ناجحة عدنا بعدها إلى الوطن وهو معافى ولكن بنصف حماسه، الشىء الوحيد الذى لم يفتر هو تعلقه بى بل ازداد تعلقه وأصبح لا يتركنى لحظة إلا لعمل مهم .

تقلص عمله كثيرًا رغبة فى مزيد من الراحة حسب تعليمات الأطباء . أما أنا فقد أصابنى الأرق، اضطرب نومى ولم يعد من بعدها إلى عمقه، نوم خفيف قلق غير مشبع وغير منعش، يستهلك أكثر من نصفه فى كوابيس مزعجة تتعلق بموضوع واحد هو رحيل زوجى عنى . وفى يوم صحا زوجى منقبضًا وكنت أكثر منه انقباضًا، كان انقباضى نوعًا من الحزن والتوقع السيئ . أما انقباض زوجى فكان ضغطًا على الصدر . قال لى : أشعر وكأن فيلاً يجثم على صدرى . .

اختفى لمعان عينيه الذى اشتهر به وشحب صوته وأبطأت حركته ولكنه أخذ يقاوم حتى يشعرنى أنه بخير . . لم يستطع إكمال كوب العصير . لم يلمس فنجان قهوته، لم يلتفت إلى الصحف . ارتدى

ملابسه بتثاقل وكأنما يتلكأ حتى لا يغادر، طالعت القتامة فى وجهه وكأنه مصباح قد خبا ضوؤه. اقتربت منه لأقبِّله ولكننى أحجمت إذ شعرت بأن شخصًا ثالثًا موجود معنا فى الحجرة. أدرت رأسى فى كل مكان فلم أر أحدًا. ولكننى كنت متيقنة من وجود أحد معنا يتطلع بتحفز ناحية زوجى.. كرهت من الأعماق هذا الشخص وكرهت نظراته لزوجى، قلت: لعلى جننت إذ أشعر بيقين بوجود كائن لا أراه!.. وكدت أختنق لوجوده، شعرت بتقلص الشعب الهوائية، أردت أن أفر أنا وزوجى من المكان، وفعلاً فعلت، مضينا إلى حجرة أخرى، ولكن هذا الكائن اتبعنا اتجه ناحية زوجى، ولكنى اندفعت وصددته بكل جسدى.. جعلت جسدى سياجًا لزوجى، وعزمت أن أدخل فى معركة حياة أو موت، مع هذا الكائن!

وفكرت فى أن أقتله، أمسكت بفتَّاحة الخطابات ذات الطرف المعدنى المدبب، ويبدو أنه قرأ ما بخاطرى فابتسم ليس استهزاء ولكن شفقة. احتضنت زوجى رغم هذا الوجود الثقيل، قبَّلته فى جبينه فوجدته باردًا مفترشًا بحبات عرق تكاد لا ترى ولكنها علقت بشفتى. وفجأة شعرت بقوة تنتزعنى من زوجى وتبعدنى عنه.

وفى هذه اللحظة صرخ زوجى ووضع يده على صدره متألمًا.. نظر إلىَّ بجزع، ووجدتنى لا أستطيع أن أفعل شيئًا..!

تركت الأمر كله للطرف الثالث الموجود معنا، وشعرت فعلاً بأنه يقف على رأسه بعد أن أطاح زوجى على الفراش.. رأيت هذه

اليد الغريبة تسدل عينى زوجى وتضم شفتيه حتى لا ينبعث صوت. وذهب الألم عن زوجى وراح فى نوم.. وشعرت وكأنما هذا الكائن الغريب قد غادر المكان، فتقدمت نحو زوجى وهززته ليفيق من إغفاءته ولكنه لم يصح أبدًا!

وخلا مكانه فى الأرجوحة، وصرت وحيدة.. ناس كثيرون حولى ولكن مكانه ظل خاليًا فى الأرجوحة التى لا تسع إلا اثنين. صرت واحدًا. وأنا الآن لا أستطيع الحياة بدونه، لا أستطيع أن أتعامل مع الدنيا فى عدم وجوده، ليس حزنًا ولكننى فعلاً لا أعرف.. لا أعرف كيف أخطو، لا أعرف كيف أجلس إلى طعام، لا أعرف كيف أرحب بزائر!

لا أعرف كيف أختار ملابسى، لا أعرف كيف أستحم، إذ لا أطول ظهرى لأدعكه. أشعر بعدم توازن وأنا أمضى فى الطريق وحيدة، أشعر بأننى أقل من الناس، وأحيانًا أشعر بالعار، أشعر بالخزى. أريد أن أتوارى فأنا ناقصة منقوصة!

قالوا لى: ستنسين. ومضت الآن ثلاث سنوات وكأنه قد تركنى بالأمس، ما زالت رائحة عرقه بالبيت، ما زالت الشعيرات الأخيرة التى تساقطت من رأسه على الوسادة. اتهمونى بأنى أتمادى فى الحزن وأعززه ولكننى فى الحقيقة لا أستطيع الحياة بدونه، الحياة ليست كالحياة حينما كان معى.. شىء آخر أن تكون وحيدًا إذ عليك أن تدفع الأرجوحة بكل قوتك حتى تتحرك وحين تقع

لا تجد أحدًا ينهض بك، بل حركتها تصبح بلا معنى. . حركة عبثية، حركة لا تبعث على السرور وإنما مملة رتيبة متكررة، حتى الطفل لا يجد متعة فى الجلوس إلى الأرجوحة بمفرده. البهجة الحقيقية لا تأتى إلا من جليس ثان على الأرجوحة.

مشكلتى فى عدم الاستطاعة وكأن سيارة خبطت دماغى فأفقدتنى كل مهارات السعى فى الحياة. . أقع كثيرًا وأتوه إذ أمضى بلا خريطة وأصطدم إذ الطرق مظلمة، والأهم أنه لا يوجد أى معنى لأى فعل أو حركة!

أصبح الاستمرار فى الحياة عبئًا ثقيلاً، الشىء الوحيد الذى يُسَرِّى عنى ويجعلنى أقبل العيش هو استعادة ذكرى أيامى معه. لا حرمنى الله من ذاكرتى إذا أرادنى أن أستمر فى الحياة، ولْيُنْهِ حياتى إذا أفقدنى القدرة على التذكر!

ورغم أننى كرهت هذا الكائن الغريب الذى لم أشعر بوجوده إلا يوم أن غادر زوجى، فإننى أتمنى زيارته لى ليأخذنى حيث ذهب بزوجى!

●●●

امرأة عاجزة عن الحب

القمر فى اكتماله يصبغ الليل بلون الفضة . . والليالى الفضية تحرض على الحب شريطة أن يشهد القمر الواقعة . . فمتعة الحب تتضاعف فى حضن الطبيعة ، حيث الصفاء والنقاء والجمال الأخَّاذ الذى ينطق بالقدرة ، وإذا العاشقان يعيشان القصة من أولها كأنهما آدم وحواء .

الرجل بكر لم يعرف امرأة من قبل . والمرأة بكر لم تعرف رجلاً من قبل ، وإذا قوة شد طاغية تدفع كلاهما تشوقًا إلى شىء مبهم وغامض وغير محدد ولكن فى اتجاه هذا المخلوق الذى يشبهه ويراه لأول مرة . . ويتحرك اللسان بكلمة لم تتردد فى الكون من قبل : أنا أحبك . . فيرد الطرف الآخر تلقائيّاً وبدون توجيه إرادى منه وأنا كذلك أحبك . . وتقصر المسافة التى تفصلهما حتى يلتصقا فيستشعرا شيئًا جديدًا .

يجعل الأنفاس تتقطع والقلوب تختلج والأبصار تشخص فى غير اتجاه . . ثم يهدأ كل شىء ولا يبقى إلا الشعور بالخجل من القمر ولياليه الفاضحة الكاشفة للحدث الأعظم حيث كان اللقاء الأول بين آدم وحواء مثل كل لقاء تجدد بعد ذلك بين أحفاد آدم وحفيدات حواء . وأكثر ما يثير فى اللقاء الأول هو الدهشة . دهشة أنك وجدت شيئًا كنت تبحث عنه . دهشة اللقاء بإنسان أول مرة

رغم يقينك من أنك تعرفه حق المعرفة . . دهشة الانجذاب الساحق نحو هذا الإنسان والذى يشملك كلك فتتوق الحواس كلها لاحتوائه بالعين والأذن واليد والفم والأنف . . كلما اقتربت منه تفرح وكلما ابتعدت عنه تيئس فتقرر أن تبقى معه . . ولكن إلى متى؟ ويأتى الزواج لينص على الحياة الأبدية باسم الحب ومن أجل استمرار الحياة . وقرار الزواج يتخذه الإنسان فى اللقاء الأول ومن النظرة الأولى، ولكن يهدئ من قلقه ويطمئن نفسه فإنه يتظاهر بأنه سيفكر ويدرس ويتدبر الأمر قبل اتخاذ القرار . وأنه سيحكم العقل وليس القلب وحده لكى يختار الإنسان المناسب . . وإذا هذا الإنسان المناسب هو الذى انجذب إليه فى اللحظة الأولى منذ اللقاء الأول ولم يستطع أن يبتعد عنه بعد ذلك .

والإنسان، أى إنسان يخدع نفسه بالعقل ولكن فى الحقيقة أن الذى وجهه هو هواه . . والهوى هو الميل الفطرى التلقائى وله قوة دفع لا حيلة للإنسان بمقاومتها، وهو الذى يملى على العقل ويجعله يتصور أن القرار قراره . . وهذا هو النصيب الذى لا مفر منه . هذه هى لعبة القدر . . هكذا يتزوج رجل وامرأة .

وأن يستمرا أو لا يستمرا هذا أمر آخر . . إنما لابد أن تكون هناك بداية انفجار . . اشتعال . . انبهار . . انجذاب . . حركة الروح والقلب والجسد والعقل معًا . .

وكالعطشان الذى يغمس فمه فى النهر، فإن آدم وحواء فى كل زمان وبعد اللقاء الأول ينهلان بنهم من نهرين أحدهما عسل

مصفى والآخر لبن طهور . . مذاق حلو وسائغ . . حيث أقصى متعة فى الحياة . . متعة الحياة مع إنسان من الجنس الآخر تحبه . .

الشرط هنا هو أن تظل تحبه أولاً . . وإلا يصبح الشراب بلا مذاق أو يصبح مرآ، أو يصبح فاسداً، وفى هذه الحالة الأخيرة الانفصال . . وفى بعض الأحيان يستمر الزواج رغم فساد المحتوى والمذاق . . وهنا يعم فساد أكثر يلوث الروح واليقين والضمير .

هكذا التقيا كانت بكراً . أما هو فلم يكن . . كانت صغيرة دون العشرين لم تعرف رجلاً من قبله . . عرفته فقط فى خيالها . وبالصورة الطبيعية كزوج . . جميلة إلى حد شد الأنظار النهمة وغير النهمة من الرجال والنساء معًا . . من أسرة تعلو كثيراً على المستوى المتوسط . تتمتع بالرخاء المادى والزهو الاجتماعى المعقول وأسلوبٍ محافظ فى الحياة منبعه تدين واع وعميق . .

أما هو فكان معتدلاً فى كل شىء ولا عيب ظاهراً يشكل عقبة . إنه زواج تحفه كل توقعات النجاح . وربما آفته الوحيدة والتى شفيت بالزواج هى تعدد علاقاته غير المشروعة بالجنس الآخر وهو شىء يقال إنه لا يعيب فى بعض المجتمعات . . يكبرها بعشر سنوات . . ذو وظيفة تعد بمزيد من الارتفاع، وله دخل يضمن استمرار المستوى الذى عاشت فى ظله .

أما هى فقد انجذبت له لوسامته وحسن هندامه وهدوئه وثقته بنفسه .

أمهلها عامًا حتى انتهت من دراستها الجامعية وتزوجا.

ومرت عشر سنوات دون مفاجآت تهدد السار الطبيعى للحياة.. كانت سعيدة به وكانت تتصور من تأكيداته أنه سعيد بها، إلا من بعض الانتقادات الرقيقة التى تتهمها بعدم الخبرة فى الحب، غير أنها لم تهمل هذا الأمر فأخذت تقرأ وتسأل لتكتسب مهارة إسعاد الرجل فى الفراش.. كانت تبذل جهدًا تحمد عليه وإخلاصًا فى الأداء يكشف عن حرص زوجة على استقرار حياتها الزوجية.

إلى أن جاءت ليلة سوداء رغم أنها بدأت بداية ذهبية.. أعدت بعناية كل شىء للحب.. هيأت كل ما يحبه.. استعدت كعروس فى ليلتها الأولى وبينما هى تستمتع باللحظات الحسمة متصورة أنه عند نفس الدرجة من التجاوب ابتعد فجأة صارخًا فى وجهها: كم أنت امرأة سيئة.. أنت أسوأ امرأة فى الفراش فى العالم.. أى رجل يعيش معك تعيس.. أنت معدومة الأنوثة واستمر الرجل فى كلماته إلا أنها لم تعد تسمع. ولم تعد تفهم. تداخلت الكلمات فأصبحت غير واضحة.. بل لم تعد ترى أيضًا.. عمّ المكان سواد حجب الرؤية تمامًا.. وغاب عنها وعيها.. أفاقت فى الصباح فلم تجده بجوارها فى الفراش!

أحدثت هذه الكلمات هزة عنيفة فى حياته.. أطاحت بكل الأبنية ذات الدعائم الراسخة التى جعلتها على مدى حياتها السابقة إنسانة متوازنة تؤمن بكل ما هو حق وأصيل وجميل.. أحدثت

الهزة شروخًا بجدار القلب فلم يعد قادراً على مسئولية احتواء إنسان داخله باسم الحب . . ومن كثرة ما تهدم داخلها ثار غبار لوث الروح ففقدت صفاءها وتلقائيتها . . ومن يفقد تلقائيته يفقد ثقته بنفسه . . ومن يفقد ثقته بنفسه لا يهدأ حتى يستعيدها لأنه بدونها كتراب لا يقوى الهواء على حمله وإنما يبعثره هنا وهناك بلا هدف!

هكذا أصبحت . . وهكذا تحولت . . وكان التحول فى اتجاه واحد وهو استعادة ثقتها بنفسها كامرأة قادرة على إسعاد رجل، كانت قادرة على إثارته، ككيان إنسانى قابل للحب وقادر عليه . .

وفى كل يوم تسأل نفسها : من أنا ومن أكون؟

كيف كنت . . وكيف أصبحت؟ . . وإلى أين أسير؟

ماذا أريد بالضبط؟ لقد أصبحت زوجة خائنة إذا كان تعريف الخيانة هو أن تعاشر المرأة رجلاً غير زوجها . . وهل الخيانة إدانة؟

وهل الإدانة جائزة دون معرفة الأسباب والدوافع؟ هل من حقنا أن نقول وأن نسأل : لماذا تخون المرأة زوجها؟ هل هناك أسباب تدفع المرأة دفعًا وقهرًا، وضد إرادتها لتخون زوجها؟ هل الخيانة هواية أم حالة مزاجية أم ميل فطرى للتعددية؟ هل الخيانة استعداد موروث أم ثمة عوامل خارجية تفسرها، أى تفسر حدوثها؟

هل هناك خيانة مقبولة أو مشروعة أو مبررة وأخرى غير ذلك؟ وهل تصبح الخيانة حقّاً لبعض النساء؟ وهل هناك فرق بين خيانة الرجل وخيانة المرأة؟

والحق أقول إننى خنت زوجى بملء إرادتى واختيارى ورغبتى وقناعتى وتخطيطى وتدبيرى وإننى غير نادمة على ذلك، ولقد عرفت أربعة رجال على مدى عشر سنوات منذ أن ذبحنى فأنا ما زلت أقطر دمًا من أنوثتى المنهارة وكيانى المهدم. . وفى كل مرة أعرف رجلاً أبحث فى عينيه عن مدى رضاه عنى إلا أننى لا أجرؤ أن أسأله مباشرة. . وأود أن أسأله هل كنت سعيداً معى فى الفراش، ولكننى أتردد. . أخاف. . أرتعب. .

أخشى أن أشعر بأنه يكذب علىَّ وهو يجاملنى. . فأسكت. أكتفى بمراقبة تعبيرات وجهه وبالتنصت على أنفاسه. . وبالشعور بخلجات عضلاته وبإصراره على مقابلتى فى المرة التالية.

وأظل معه عامًا أو عامين. . ولا أبرأ. . لا تعاودنى الثقة. . أشك فى مدى صدقه معى. . أتصور أنه يعرفنى بحكم العادة. أرتعب من فكرة أنه قد يهجرنى فى يوم من الأيام، ولذا أبادئ بهجره. . أتعرف إلى رجل جديد. . أعيش معه نفس الدوامة باحثة عن شىء واحد وهو أنوثتى الضائعة. وأتصور أن رجلاً ما سيرد لى هذا الإحساس المفقود، أنتظر أن يقول لى رجل ما: أنت، أمتع امرأة فى العالم، أنت مثيرة، أنت لذيذة، أنت جذابة جنسيّاً. . الرجل الذى يعرفك لا يستطيع أن يعرف امرأة أخرى بعدك. ثم أتركه إلى رجل ثالث، وأعترف بأننى لم أحب أحدًا من هؤلاء الرجال. . حتى عرفت الرجل الرابع، كان انطوائيّاً وهادئًا وعطوفًا. . ربما أدرك حقيقة مشكلتى بالرغم من أننى لا أفصح أبدًا عنها. . أدركت

بعد وقت غير طويل أن هذا الرجل يحبنى . . أشعر بحنانه الدافق حين يحتوينى . . لم يكن يُقبل علىَّ جنسيّاً بنهم، لم يكن شغوفًا بالجنس إلى حد الهوس . . اطمأن قلبى . . لأن هذا النوع من الرجال صادق، وأعترف بأننى لم أشعر بأى إحساس جنسى مع هؤلاء الرجال الأربعة، الرجل الوحيد الذى عرفت معه الجنس كان زوجى . . وأنا لا أبحث عن الجنس . . أنا لست جائعة الجسد . . ولكننى جائعة لشىء آخر . . إنه الثقة بالنفس .

وبدأت أميل عاطفيّاً إلى هذا الرجل الرابع . . وتدريجيّاً بدأت لا أنشغل بالقضية الجنسية . . وتدريجيّاً أصبح الجنس يحتل مكانة ثانوية فى علاقاتنا، كنا نسعد بالحديث معًا . . نسعد باللمسات الرقيقة دون إثارة مجنونة . . وقلت لنفسى : لعلى فى طريقى إلى الشفاء . .

عاد لى اتزانى . . عادت لى الطمأنينة . . لم أعد أقضى وقتًا طويلاً أمام المرآة . . لم أعد أحرص على الملابس التى تكشف بجرأة عن جسدى . . لم أعد أشتاق لنظرة الذئب فى العيون . . وإنما أتلمس نبرات الحنان فى الصوت . . لم يكن هذا الرجل يتكلم كثيرًا، بل كان يسمع كثيرًا . . يتأمل . . يفكر بهدوء .

لم يكن صاخبًا . . وقد لا يصدقنى أحد إذا قلت إنه كانت تمر أشهر عديدة دون أى لقاء جنسى . . لهذا ورغم ورود أشياء كثيرة عن الجنس فى كلامى فإننى لم أكن أتحدث حديثًا جنسيّاً . .

لم أحك حكاية جنسية . . قصتى ليست عن الجنس . . بل إننى شفيت بدون الجنس . . بل إننى شفيت حينما ابتعدت عز الجنس!

وجاء يوم شاءت الظروف أن نلتقى جنسيًا . . وانتهى اللقاء بألم نفسى شديد انتابنا معًا فى وقت واحد . . ولأول مرة يعـودنى وخز الضمير والذى فقدته فى تلك الليلة السوداء حين ذبحنى زوجى . . وأفصح لى هو الآخر عن ألم ضميره . . وبكى . . ألمًا . . وشعورًا بالذنب . . قال لى : الحل الوحيد أن نتزوج! . وليس مهمّاً كيف صارت الأحداث بعد ذلك . . فالمستمع أو القارئ يستطيع أن يتخيل أى سيناريو يعجبه وعلى هواه انعكاسًا لشخصيته و طريقته فى التفكير .

البعض يتصور أننى سأطلب الطلاق من الزوج الذى أهان أنوثتى وأتزوج من الرجل الذى احترمنى وأحبنى . ربما يتصور البعض الآخر أننى سأطلب الطلاق فعلاً . . ولكننى لن أتزوج من الرجل الآخر . . ربما أتزوج من شخص جديد لم تكن بينى وبينه علاقة محرمة . . والبعض قد يتصور أننى سأقطع علاقتى بالرجل الذى أحببته وسأستمر مع زوجى .

والحقيقة أنى كنت فى حيرة من أمرى . وقلبت الأمور من جميع أوجهها ولم أستقر على رأى، جميع الحلول كانت مرفوضة من داخلى . . إلى أن حدث أمر هزنى مرة أخرى . . لقد علمت أن زوجى على علاقة بامرأة أخرى . . والافتراض الطبيعى أن رد فعلى

سيكون باردًا، لأن امرأة آثمة مثلى ليس لها الحق فى أن تعترض على خيانة الزوج . . ولكن ما حدث كان غريبًا وغير متوقع . لقد ثرت ثورة عارمة وقلبت حياة زوجى جحيمًا وهددت المرأة التى يعرفها وطلبت الطلاق إلا إذا تركها . . كان انهيارى عنيفًا، واحتجت لزيارة الطبيب النفسى وأعلمته بقصتى كلها وسألته تفسيراً .

قال الطبيب : أنت ما زلت تحبين زوجك، ولقد سامحته على إهانته السابقة لك بعد أن تم شفاؤك واستعدت ثقتك بنفسك . أنت لم تحبى أى رجل آخر . . وعلاقاتك المتعددة بالرجال كلها كانت علاقات مرضية . . لقد كنت مريضة مبعثرة الذات مجروحة الكرامة منعدمة الثقة بالنفس . . وحين استعدت ثقتك بنفسك واندمل الجرح استيقظ ضميرك مرة أخرى . . شعرت بالندم الشديد . وستظلين تتعذبين بإحساسك بالذنب . . ولهذا فأنت لن تتزوجى من الرجل الذى أحبك وعرض عليك الزواج فأنت لا تحبينه وإذا تزوجته فستظلين تتذكرين الإثم الكبير الذى اقترفته . .

أنت تحبين زوجك . . ولذلك فحين علمت أنه على علاقة بامرأة أخرى شعرت بالغيرة . . ومشاعر الغيرة تنطوى على عدم الثقة بالنفس، ولهذا فقد عاودك الألم القديم شعرت بالتهديد الشديد . . ها هو الزوج يفضل امرأة أخرى . . إذًا أنا أقل من هذه المرأة . . إن زوجى لا يكتفى بى لأننى منقوصة . . ولهذا ثرت من أجل

نفسك . . وثرت دفاعًا عن حياتك الزوجية . . وهذا رد فعل صحى من امرأة صحيحة نفسياً .

حاولت أن أقتنع برأى الطبيب فلم أستطع ، لقد ذبحنى زوجى مرتين . مرة حين طعن أنوثتى ومرة حين خاننى ، خيانة زوجى إهانة لى . . أما خيانتى فكانت انتقامًا . . أنا لا أحب زوجى ولا أحب أى رجل آخر . . لقد أصبحت عاجزة عن الحب ، ولذا فأنا لا أصلح أن أكون زوجة لأى من الرجلين . . فلا يصح زواج بدون حب!!

●●●

المؤانسة

رغم أن البيت كان يقع على أطراف القرية يقف وحيداً دون مساندة جوارية من بيوت أخرى. ورغم أنه كان يتألف من حجرة وحيدة كعش فريد على شجرة يتسع بالكاد لزوجين من اليمام.. ورغم أنه كان متخلفًا عن العصر فلا تصله الكهرباء وزيته شحيح.. ورغم أن الحركة فيه كانت تتوقف تمامًا بعد صلاة العشاء، فلا يسمع منه إلا أنفاسٌ هادئة تتردد تؤكد نوم أصحابه الأربعة.. زوج وزوجة وطفلين.. ورغم انعدام زواره لضعف مقام أصحابه. ورغم قسوة شتائه لقلة غطائه.. ورغم اختناق صيفه لمحدودية منافذه.. ورغم ابتعاد الضال من الحيوانات منه لانعدام ما يجود به من غذاء فائض حيث لا يكفى إلا لأصحابه بالكاد.. ورغم أن كل ذلك لا يحث إلا على الضجر.. رغم كل ذلك فإن أصحاب هذا البيت كانوا يشعرون بالمؤانسة.

يتلهف الزوج على العودة من عمله إلى البيت لتتلقفه زوجة أكثر تلهفًا وليلتف حوله طفلان بلغ بهما الشوق مداه.. يجلسون إلى طعام بسيط يتسامرون.. لا تتوقف الحكايات إلا حين يؤذن للعشاء.. يصلون، ينامون فى هناء. لا يصحون إلا حين يؤذن للفجر، يصلون، يلتهمون بتلذذ طعامًا أكثر بساطة، يشعرون ببعض الضيق لتفرقهم كل إلى شأنه.. الأمل فى اللقاء آخر النهار

يملؤهم حماسة . . الشوق المأمول أى الشوق الذي سيعقبه لقاء مؤكد هو مصدر الطاقة فى هذه الحياة، ويذهب عن لنفس أى ضجر . لا ضجر مع الشوق المأمول .

ذكرى الحبيب

رغم أن الأحباب رحلوا بفعل المشيئة الإلهية . . الرحيل المحتوم وليس رحيل الغدر . ورغم أن مرور الزمن باعد بين الحاضر وبين ما خلا من أيام جميلة . . ورغم أن النسيان قد التهم بعضًا من التفاصيل . . ورغم تعاقب أحداث وأحداث كفيلة بأن تزيح أى ذكرى لأيام مضت، ورغم أن الحاضر لا يجود إلا بالجمر الردىء الذى يعطل الفهم، ولا يجود إلا بالنغم السخيف الذى يطفئ وهج الوجدان ولا يجود إلا بالغث من الأفكار التى تلوث الروح . رغم الوحدة . . رغم البيت المهجور، رغم الطبق الواحد على مائدة الطعام، رغم الوسادة الوحيدة والغطاء المختصر، رغم كل ذلك فإنه تعود وهو عائد إلى بيته فى المساء بعد يوم عمل طويل متواصل أن يمنى نفسه بلقاء خاص مع ذكرياته، وفى محاولة لاستعادة تفاصيل يوم معين، أو مرحلة بأكملها أو حدث خاص، ما أحلاها من أيام وأحداث . . مجرد استعادتها يبعث الحماسة فتتدفق الطاقة وتثب الروح من الفرحة ويبتهج العقل من النشوة .

إنه حفل خاص جداً من ذكريات لأيام مع الحبيب، يبدو أن مجرد استعادة ذكريات أيام جميلة كفيل بأن يوقف فعل الضجر فى

حياة الإنسان . يبدو أن المؤانسة من الممكن أن تتحقق بمجرد التذكر ، يبدو أن الذكريات مع الحبيب بالذات هى التى تضىء وتبهج وتنعش وتؤانس وتملأ وتفيض . وإذا كان الرصيد المالى يضمن الستر ويتحدى غدر الزمان ، فإن الرصيد العاطفى يضمن السعادة ويتحدى ضجر الأيام . . لا ضجر مع ذكرى الحبيب .

الإخوة والأصحاب

رغم أن الهواء نقى والشارع نظيف ، جنباته خضراء كأنما يخترق حديقة ، ورغم أن الطعام وفير والمال كثير . . ورغم أن الوجوه باسمة والطباع سمحة . . رغم أن الحياة سهلة بفعل النظام والإتقان ورغم أن العقل منبهر بالعلم والابتكار ، ورغم أن الوجدان متناغم مع إبداعات الفنون والإدراك مشبع بجمال الوجوه . . رغم كل ذلك فإن القلق يتزايد كبر كان يتشكل ويهدد باختراق سطح الأرض ليشعل نارًا وينسف بيوتًا ويهد أركانًا ، فالضجر قد بلغ مداه رغم طيب الحياة!

فالبعد عن الأوطان عذاب للنفس وأقسى عذاب للنفس هو الضجر . . ولا شىء يُذهب الضجر عن النفس إلا الأهل والأصحاب . . يا أخى تعال لتؤنس الأيام . . يا صاحبى تعال لتبتهج الليالى . . فنقاء الهواء ونظافة الطريق وخضرة الشعاب ووفرة الطعام وكثرة المال وجمال الوجوه ودقة النظام وارتقاء العلوم وجودة الفنون . . كل ذلك وحده لا يكفى لحماية النفس من الضجر! وأتعس ضجر هو ضجر الغربة عن الأوطان ولا يُذهب

ضجر الغربة عن الأوطان إلا العودة إلى الأوطان أو اللقاء بالإخوة والصحاب ولأن العودة غير مأمولة واللاعودة مفروضة فلا مؤانسة إلا مع الإخوة والأصحاب.

فى نهاية الأسبوع يلتقون يجتمعون. يأكلون يتسامرون. يمرحون. حكايات لا تنتهى ونوادر تُحكى فيضحكون. البركة فى اللمة والبهجة فى الجماعة. والألحان القديمة تحيى القلوب وذكريات الأوطان تشعل النفوس بالحماسة والنشوة. فى نهاية الأسبوع يلتقون يأتنسون، وذلك يُذهب ضجر الأسبوع الذى يليه.

الأم

رغم الجفاف، رغم اختلاف الجو فأصبح الصيف قائظًا والشتاء قارسًا.. رغم نضوب العواطف وندرة الحب.. رغم غلظة الطباع وغلبة الهوى وضعف النفوس.. رغم الغيرة التى تنقلب حقدًا..

رغم الهوة التى تفصل بين الناس.. رغم التباعد والانغلاق والتحوصل لمنع اقتراب طالبى الحاجات.. رغم عدم الكياسة وانعدام اللباقة وجرح المشاعر وأذى الشعور.. رغم كل ذلك فإنه لم يشعر أبدًا بالوحدة لأنها ما زالت موجودة على قيد الحياة، أنهكها السن والمرض ولكنها ما زالت قادرة على الدعاء له.

يشعر بالفرحة وهو فى طريقه إليها.. ويرى بيتها وقد مُلئ نورًا يقبِّل يدها، يجلس بجوارها يحكى لها عن متاعبه، تدعو له، يقول فى سره: يا بركة دعاء الوالدين.. يمتلئ فرحة ويزدهى

حماسة وتدب فى أوصاله قوة وتفوح منه الطاقة . . يا بركة دعاء الوالدين .

يشعر بالمؤانسة رغم بساطتها، لا يريد أن يغادر، وإذا همَّ بالقيام تقول له: اجلس يا بنى فلم أشبع منك بعد. لا ضجر مع مجالسة الأم الحنون، المؤانسة تأتى من ظلال قلب، المؤانسة تأتى مع الحب، المؤانسة حب، المؤانسة أم، تأتنس حتى بالصمت وأنت جالس بجوارها!

الأب

رغم العلم الغزير والفكر العميق . . رغم كتب قرأها وبلاد جابها . . رغم محاضرات ألقاها وفتاوى أفاد بها وإبداعات يسره الله لها . . رغم الحكمة والبلاغة، رغم الرؤية الأشمل والحس الأنضج . . رغم كل ذلك فقد كان يجلس كتلميذ صغير بجوار أبيه البسيط . . يسأله إذا واجهته مشكلة ويستشيره إذا أقلقته الحياة ويطلب منه النصيحة إذا استعصى عليه موقف. يا أبى إنى ضعيف فساعدنى . . فيقول الأب: قواك الله يا ابنى .

يا أبى إنى بائس فأنقذنى . . فيقول الأب: قواك الله يا ابني . .

يا أبى إنى متعب . . فيقول الأب: متعك الله بالصحة يا ابنى .

يا أبى إنى ضجر . . فيقول الأب: آنسك الله بمحبته يا ابنى .

يغادر الابن مجلس الأب وقد هدأت نفسه . ويستعيد ما قاله له الأب ونصحه به وأرشده إليه . فلا يجد شيئًا محددًا، ورغم ذلك فقد وجد الحل . . اهتدى إليه . . أضاء أمامه الطريق، فلا طريق إلا طريق الله . . فلن تجد غير حكم الله حكمًا، ولن تجد دون الله بابًا . لا ضجر مع ذكر الله، والمؤانسة هى فيض من حب الله .

العشاق

حين يجلس إلى حبيبته لا يمل الحديث . . ساعات وساعات . . تحكى وتزيد . . ويحكى ويزيد . . تواصل لايقطعه إلا الانتقال من فكرة إلى فكرة . . وأفكار . . وكل الكلام له معنى . . والكلام الذى له معنى لا يمل . . وكل كلام العشاق له معنى لأنه يخرج من القلب . . وهو قلب الصدق وهو صدق القلب . . وهو كلام ممتع لأنه مشبع بالأمل . . وكلما امتد الكلام خفتت حدة ألم الأشواق، فمشكلة العشاق هى الشوق . . والشوق ألم ممزوج بالأمل والرغبة والتوقع الحسن . . ولهذا حين يلتقيان يفرحان ويتكلمان ولا يتوقفان كمن ينهل من الماء ليطفئ عطشًا .

وكلام العشاق ليس فقط متعة للقلب بل هو أيضًا متعة للعقل . . ولذة للعقل لا تدانيها لذة . . ومحظوظ من يجد شيئًا يلذ عقله . . علم أو فكر أو فن . . والحب أيضًا هو ما يلذ العقل . . لأن الحب محمل بالمعنى الكلى . . المعنى الشامل . . معنى الحياة والوجود . . قيمة الحياة وجدواها . . قيمة الإنسان، والعقل

لا يتلذذ إلا بكل ما له معنى وقيمة وهدف، العقل يتلذذ بمعرفة أصل الأشياء وجدواها، العقل يبحث عن أصل الظاهرة.

العقل هو أروع تحقيق لإنسانية الإنسان، والعقل طريق مباشر إلى الله، طريق الهداية عن طريق العقل، وهو فى نفس الوقت طريق الحب، طريق الفهم العميق.. طريق الإحاطة.. طريق الطمأنينة.. فالله حب.. والله محبة.. والله أمان وسلام.. ولذلك وهبنا الله العقل لنهتدى إليه بفعل نور محبته.. ولهذا فمنطقىٌ ألا يضجر المحبون.. دليل الحب هو اختفاء الضجر مهما طال الحديث ومهما طال الاقتراب. بل يودان ألا ينفصلا لحظة فى قمة المؤانسة.. ولذا فالحب هو أقصى درجة من المتعة.. قد نسميها متعة معنوية أو روحية ولكنها فى الحقيقة متعة عقلية. متعة الاكتشاف والكشف.. متعة اليقين والتيقن.. متعة السلام والتسليم.

ولهذا ابقَ معنا.

●●●

إلغاء البشر

يستطيع الإنسان أن يلخص كتابًا فى سطر واحد، بل يستطيع أن يصف مدرسة فى الفكر فى جملة واحدة، كما يستطيع أن يستخلص من حقبة تاريخية تقاس بقرن من الزمان معنى أو مضمونًا يسطر فى كلمات قليلة، وأيضًا فى الإمكان وصف شخصية إنسان فى كلمة واحدة.

لكنك لا تستطيع أن تلغى شيئًا موجودًا سواء أكان فكرًا أم زمنًا أم إنسانًا، أنت لا تستطيع أن تمحق الأفكار وأن تشطب الزمن وأن تنكر وجود الإنسان، فأى كائن تم إدراكه يسجل فى دمة التاريخ، أى حدث تمت معايشته يدرج فى طيات الذاكرة، أى زمن كنت شاهدًا عليه، يتحول إلى ماض، أى فكر اطلعت عليه يتداخل فى صميم جهازك المعرفى سواء أرفضته بعد ذلك أم ظل إيمانك به قائمًا.

لا توجد ممحاة تزيل البشر أو الزمن أو الأحداث أو الأفكار، إنها تظل معك فى داخلك، معلنة أو غير معلنة. مكشوفة أو مستورة فى الوعى أو فى اللاوعى، وبذلك يكون هناك تواصل وتطور ونمو، لا يمكن أن تسقط حلقة من السلسلة وإلا تصبح جزأين منفصلين.

لكن حينما يشيخ الإنسان ينكس، تتوه الأحداث وتضيع الأشخاص ويمسح الزمن، ويلغى الأشخاص وتنمحى الأفكار . . إنه السقوط الكبير، السقوط الذى لا ارتفاع من بعده، بل يعقبه سقوط وسقوط إلى قاع البئر السحيقة، وحينئذ تصبح حياة الإنسان ذاته بلا معنى، ومن الأفضل أن يموت . أكبر مدعاة لأن يموت الإنسان أن يتفسخ عقله وأن يتشتت فكره وألا تتواصل ذاكرته . وإنى لأعجب لحالتى إذ ألغى شخص من عقلى وضاعت أحداث من ذاكرنى، وانتزعت فترة زمنية من إدراكى وتبخرت قيمة أو مجموعة قيم من وعيى، ماذا حدث لى؟ هل أصيب مخى بشيخوخة مبكرة؟! هل تصلبت الشرايين واندثرت الخلايا؟!

وإليكم قصتى من آخرها:

إننى لا أعترف بوجود شخص أحببته سنوات طويلة من عمرى، إننى لا أشعر أنه موجود الآن، بل هو لم يكن موجودًا فى يوم من الأيام، أى أنه لم يخلق أبدًا، وبالتالى ضاع الزمن الذى كان موجودًا فيه وسقطت الأحداث التى ارتبطت به، كما أن كل المعانى والقيم والمفاهيم التى كانت متعلقة به دفنت تحت التراب بل تلاشت، فالتلاشى يعنى عدم الوجود، المقابر شاهدة على ما بداخلها . أما الجسد الذى يحرق وتتناثر ذراته فلا دليل على أنه كان موجودًا أصلاً، أى لا دليل ماديّاً .

ماذا حدث لى؟ كيف ألغيت هذا الشخص؟ كيف اكتشفت أنه تم شطبه تمامًا؟ ولماذا؟ وكيف كان عندى قبل الإلغاء؟!

إنها قصة طويلة، تعود إلى سنوات طويلة مضت حين قابلته وأحببته، أما لماذا أحببته، فلأننى أحببت نفسى معه بل أقول إننى أحببت نفسى معه أكثر مما أحببته هو، وما أجمل أن تحب نفسك من خلال شخص آخر. وما أروعه من إنسان يجعلك تحب نفسك أكثر مما تحبه هو، إنك بعد ذلك سوف تحبه أكثر مما تحب نفسك لأنه باعث الحب فيك، وتلك هى منظومة الحب الخالدة، أن تحب نفسك وتحبه ويحبك هو.

وحين أحببت نفسى أصبحت مرحة شجاعة واثقة بنفسى معتدة بقدراتى، وبذلك أصبح هناك ارتباط شرطى بين حبى لنفسى وحبى له، لقد أضاف لحياتى، لقد أضاء طريقى وسلمنى خريطة لطرق لم أكن أعرفها ورفع عنى ضجراً معروفًا عن الحياة، كان الكلام معه سهلاً، والسهولة هنا تعنى أنه لم يكن يلف ويدور، كلامه ليس له أكثر من معنى بل كان مباشراً وواضحًا.

معه لم أكن أحتاج لأن ألعب مباراة، ولم أكن أجهد ذهنى لمعرفة المباراة التى يلعبها.. لم يكن يلعب أى مباراة على الإطلاق فى كل معاملاته الإنسانية وبالتحديد معى، ولذا كنت أشعر بالراحة الذهنية وبالطلاقة الفكرية والتداعى الخلاق معه.. أكون على حقيقتى وأنا معه، أكون ذاتى الحقيقية لا أضطر إطلاقًا لأن ألبس قناعًا.

كان كل شىء معه يبعث على الراحة والاسترخاء والميل إلى المرح، شىء مريح حقّاً، قبله كنت أشعر بأننى ألهث وأننى

مشـدودة، أننى أقف على الحافـة. بعـد أن عـرفـتـه هدأت أنفـاسى واسترخت عضلاتى فاستشعرت خدراً لذيذاً فى أعصابى كم أصبحت الحياة رائعة معه. ورغم أننى كنت مكتملة الأنوثة فى خضرته فإننى كنت أمرح معه كطفلة أجرى معه حافية القدمين على الشاطئ أقذفه بالرمال ويهيل علىَّ ماء البحر، وكان يخشى علىَّ أن أغنى، وكنت أغنى له وحده، وكان صوتى جميلاً، وكان يستعيد غنائى.

كان الصباح يشهد على طفولتنا، وكانت الظهيرة تستثير فكرنا. أما الليل فكان يحرك رومانسيتنا ويوقظ فطرتنا. وكان كل صبح يحمل أملاً جديداً فى أن نكون معًا إلى الأبد، لم أكف عن الأمل، ولم يهن أملى أو يضعف فى أى لحظة، كنت أثق به لأنه كان يحبنى، ومن يحب يصدق، ومن يحب يخلص، ومن يحب يبذل جهداً للحفاظ على حبيبه.

ولكنه لم يتقدم، لم يتحرك، لم يفعل شيئًا، ظلت الأمومة معلقة، وطال الزمان، وتسرب داخلى القلق اللعين، والقلق يجر الوساوس، والوساوس تجر الهواجس، والهواجس هى افتراضات سوداء يعقبها ظن أكثر سواداً، ولكنى لم أصل أبداً إلى اليقين بأنه سيئ، فمن يحب لا يظن بحبيبه السوء حتى وإن أجمعت الدنيا كلها على ذلك، ولكنه القلق اللعين والأمل الذى يتراجع رويداً بقدر غير محسوس. ثم وجدتنى وأنا مشدودة معه، أفلت منى الاسترخاء الذى كنت أحسه فى حضرته، أصبحت أتصنع، جئت بعدة أقنعة لألبس فى كل مناسبة معه قناعًا، كرهت نفسى بالقناع،

ومن قبل كنت أحب نفسى معه، وهكذا فقدت شيئًا كبيرًا، هوى ركن مهم فى علاقاتنا، سلب منى قيمة كبرى تأكدت من خلال علاقتنا وهى أن أكون نفسى الحقيقية، أن أكون على طبيعتى.

ثم ظننت أنه يلعب المباريات، يحاورنى، يقول شيئًا لا يعنيه، يقول شيئًا ويفعل شيئًا، فهوى ركن آخر فى علاقاتنا وهو الصدق، ولم أجرؤ أن أصفه بالكذب، لو فعلت ذلك لقتلت نفسى، وحين فعلتها أدركت هول الكارثة التى نحن مقبلان عليها، وحين نمت ليلة قبل أن أطمئن عليه أدركت أن الكارثة على وشك الوقوع، وحين أدرت مفتاح سيارتى ولم أدر شريطًا يحمل لحنًا أحببناه معًا، وأستقبل به كل صباح تيقنت بأن تغييرًا ما حدث داخلى.

أصبحت عصبية، شديدة الانفعال، مندفعة، تخرج منى ألفاظ لا تعبر عن شيمتى الحقيقية، تباعدت لقاءاتنا، قلَّت حماستى، وقلَّت حماسته.

ولكن ظل باب الأمل مفتوحًا فليس من طبعى أن أفقد الأمل، فأنا مناضلة وعنيدة ولدى إصرار وما زلت أحبه، إنه عمرى، وما زلت أذكره وهو بهىُّ الطلعة باسم الوجه مرح الفؤاد صافى النفس سهل المعشر، سديد الرأى، عميق الفكر، حلو اللسان، رقيق الطباع، دمث الخلق، نشيط عفى مقبل منحمس مشتاق، أين هو الآن من كل ذلك؟

لقد تغير، ولابد أن أعترف بأننى تغيرت. فعل الزمان أم فعل

الشيطان لست أدرى، ولكنى ما زلت أحبه، ما زلت أتذكر عصرنا الذهبى، ما زال باب الأمل يدفع بضوء مؤكد لا تنكره عين، ولكن يبدو أن لكل رواية نهاية، ولابد أن تسدل الستارة وتنتهى الحكاية.

فى يوم قدت سيارتى ومررت بطريق جئناه معًا، وحاولت أن استعيد المشاعر التى صاحبت وجودنا فى هذا المكان فلم أستطع، بل لم أتذكر أى نوع من المشاعر أيّاً كانت، يا للمصيبة!

وهل يستطيع إنسان أن ينسى أحداثًا عظامًا أثرت فى حياته أبلغ تأثير مثل: أول لقاء، وأول مصارحة.. أول قبلة، وأول ملامسة. أين اختفت كل هذه الأحداث وكأنها لم تقع؟!

وسألت نفسى: هل ما زلت أحبه، فأصابنى العجب، وقلت: وهل كنت فعلاً أحب هذا الرجل؟ ورجعت إلى ما كان يكتبه لى وأكتبه له، وسألت نفسى: كيف كنت أحب هذا الرجل كل هذا الحب، هل يستغرق الوهم سنوات طويلة من عمر الإنسان؟!

وجاء اليوم المهيب صحوت شبه ميتة، وكأن شخصًا مهمّاً قد مات، وكأن زعيمًا محبوبًا قد مات.. وعم الحزن كل البلاد، فى هذا اليوم رأيت شيئًا حزينًا. وحين كنت أحزن لأى سبب كنت أفكر فى الرجل الذى أحبه فيتبدد الحزن، وفى هذا اليوم المهيب حاولت أن أفكر فيه فلم أستطع، حاولت أن أتذكره فلم أستطع، لم يكن موجودًا، ضاع تمامًا، بل هو أصلاً لم يكن موجودًا فى أى وقت من الأوقات!

إرهاصـــات

فى لحظة ما تصل رسالة مبهمة عبر الأثير إلى شخص ما. رسالة لا يستطيع أن يفك طلاسمها، رسالة ربما تصل إلى وجدانه قبل أن تصل إلى فكره لتحرك شعوراً معينًا لا يدرك كنهه، مجرد شعور غير محدد.

مجرد استثارة، ولكنه يحقق عائدًا إيجابيّاً يحقق رضًا ما، يمس رغبة دفينة، يبعث سروراً يكاد لا يلمح، يرسل خيطًا من نور يكاد لا يرى، بل هو لا يرى حقّاً بل يدرك، وحين تدرك نوراً فأنت لا تراه وإنما تحس وجوده، إذ يجعل الظلمة أقل غلظة، وأقل استبدادًا.. أول شعاع نور يهدد الظلمة بالتبدد ويحمل لها الفناء.. أول شعاع نور ينبئ بفجر جديد..

هذا هو المضمون الوحيد الذى يدركه ذلك الإنسان من هذه الرسالة التى وصلته بغتة، رسالة تشى بقرب فجر جديد، وتعد بفرحة.. لم تأت الفرحة بعد ولكنه الوعد بالفرحة، إلا أن الوعد بالفرحة يكون كالفرحة بل أشد أثرًا من الفرحة لأنه وعد يحمل أملاً، والسعادة بالأمل تفوق تحقق المأمول، ولذا فإنه حين تصل رسالة ما إلى إنسان عبر الأثير ولا يقدر على فك طلاسمها فإنه لا يتحير إذ يكفيه منها الوعد بشىء ما، شىء طيب، وهذا الشىء

الطيب بالذات هو شيء اختص بجمال خاص، جمال أخاذ. إنه الوعد بالجمال، ذلك الجمال الذى يحقق للإنسان -حالة من النشوة النفسية القصوى، والوعد بالنشوة التى مبعثها الجمال يحدث فى الإنسان هزة رقيقة.

يهتز الإنسان من الداخل نفس الهزة التى تستشعرها حين تستمع إلى لحن طروب، أو ترى وجهًا جميلاً، أو تصادف حظّاً رائعًا، أو تمد يد العون إلى محتاج، أو تسامح مخطئًا فى حقك، أو تؤثر إنسانًا على نفسك.

تلك الاهتزازة لا تحدث إلا إذا كان هناك شعور هو مزيج من الرضا والفرحة واللذة، ثلاثية عجيبة تجعلك أقرب إلى ما تعد به الجنة.

وتظل الرسائل تصل تباعًا، رسالة تلو رسالة، وكل رسالة تضيف شعاعًا من نور، تضيف معنى، ترتفع بالإحساس، ولكن الصورة لا تبين. إنها صورة تصل إلى كل الحواس إلا العين بالرغم من أنها صورة، صورة نسجها العقل والإحساس بإيحاء من هذه الرسائل التى تصل متتابعة والتى قد تستغرق سنوات.. صورة تسهم فى غزلها الأذن، وكأنك تسمع شدوًا ملائكيّاً، ويسهم فيها الأنف وكأنك تشم مزيج روائح تنبعث من حديقة ورد، ويسهم فيها الجلد وكأنك تلامس نسمة صيف حانية فى برودتها.

ومع تتابع الرسائل تتشكل الصورة وتدركها كل حواسك إلا حاسة البصر، يظل الشكل مخفيّاً عنك، ويجاهد العقل فى خلق تصور لها، ثم تحاول أن تبحث عنها فى كل ما حولك، ولكن كل ما حولك هو أدنى، هو أقل، هو لا شىء بالنسبة لها، إنها تفوق الأشياء جميعًا، وتعلو عليها، وكأنها تطل علينا من السماء، وكأنها ملك، يأيها الملك الصالح أفصح عن وجهك واستبن. إنى أتوق لرؤيتك رؤية العين وليس رؤية القلب، إنى أفتش عنك فى كل مكان، أخشى أن تمضى أيامى دون أن أراك قد أراك فى العالم الآخر ولكنى أريد أن أراك الآن، أريد أن أراك فى دنياى، فأنا أحب إنسانيتى، أحب ترابيتى، حتى ولو كنت أنت ملاكًا، فإننى أريد للتراب أن يتلاقى مع النور، وسيكون أروع تلاق، فيدرك النور الجمال الكامن فى التراب، ويدرك التراب الجمال الكائن فى النور. وحتى لو كنت ترابًا فلابد أن الله شكلك بطريقة خاصة فجعلك نورًا فى صورة تراب، أى أنت ملاك إنسانى، أنت ملاك فى هيئة بشر، فهل يحق لى أن ألتقى بهذا الملاك أعجوبة الله فى خلقه حين مزج النور بالتراب؟! هل ترابيتى البحتة من الممكن أن تتلاقى مع النور الترابى؟!

ولكن لا شك أننى جدير بذلك، فهذه الرسائل تصلنى وحدى، رسائل بعينها، رسائل لها هدف واحد، وهى أن تشكل صورة لذلك المخلوق حتى أستطيع أن أتعرف عليه حين ألقاه، وكيف لى

أن أتعرف عليه دون أن أعرف شكله، لقد وصلنى كل شىء عنها إلا شكلها، يبدو أن حاسة البصر هى أقل الحواس أهمية، يبدو أن الجمال الأعظم لا يدرك إلا بعينك الداخلية، عين القلب، عين الشعور، عين العقل، فنحن نعرف أشياء كثيرة بقلوبنا وأحاسيسنا وعقولنا، وما نعرفه عن طريق القلب هو يقينى، نحن نتيقن بقلوبنا، القلب هو وسيلتنا للمعرفة اليقينية.

ولهذا أيها الملك العظيم أنا أعرفك يقينًا بقلبى ولكن ترابيتى المحضة تلح علىَّ وتوحى إلىَّ أن النشوة الكبرى لن تتحقق إلا برؤيتك فمتى أراك؟ ويطول الانتظار، سنوات.. وسنوات، وعبور السنين يعنى مزيداً من النضج، وفى يوم ما. وفى لحظة ما بعينها يؤذن للمستور أن ينكشف وتتحقق الرؤية العينية.

يدق جرس التليفون، وقبل أن يمد يده ليرفعه إلى أذنه يساوره إحساس ضخم، وكأنه تلخيص لكل الرسائل التى تلقاها على مدى سنوات.

ويأتى صوتها عبر الأسلاك فيتعرف عليها، وحين قدمت له نفسها، كاد أن يقول لها: أنا أعرفك ولكن هذا غير لائق فامتنع.. وتحدد لقاء لعمل ما، ذهب للقاء باستعدادات خاصة وكأنه مراهق فى الخامسة عشرة يلتقى مع مراهقة لأول مرة. وحدثت الرؤية العينية، ويا لمطابقة الصورة بكل تفاصيلها، إنها هى، إنها هى كما وقرت فى

القلب والعقل والإحساس والروح والشعور، إنها هى كما بالداخل، إنها هى التى تربعت داخل خلاياى على مدى سنين طوال.

وتكلمت، وناقشت فى العمل، وراحت وجاءت، رأس مرفوع، لسان طلق، ثقة بالنفس، وضوح فى الفكر، صفاء فى النفس، عزيمة فى السعى، صوت بحَّتُه منغمة. سمار يكشف عن عراقة المنشأ وعدم اختلاطه، طموح يمتد إلى أطراف الدنيا، جدية فى الأداء لم تنل منها رقة التكوين، سمو فى الحوار يكشف رفعة الأصل ويشى بتقدير هائل لشخصه جعله يزهو. أما زهوها فكان جزءًا من رونقها يسمح بتأكيد المكانة مبتعدًا عن حد الغرور.

يا سبحان الله، هكذا فى لحظات ينكشف ما توارى لسنوات، ولماذا الآن؟ أهى مصادفة؟ أكل شىء فى الحياة مصادفة؟ ومن وضع هذا السيناريو العجيب؟ وهل نحن ممثلون نتحرك حسب أدوارنا أم نحن تلقائيون عشوائيون؟

هل المصادفة هى القدر فى أجلِّ معانيه م أن كل شىء مسجل سلفًا، فى اللوح المحفوظ. ورغم أنه كان قد استقر فكره وتشكلت مفاهيمه النهائية حول هذه القضايا فإنه عاد يسأل من جديد، عادت هذه الأسئلة تلح عليه لهول عدم التصديق أو لهول الحيرة!.. شدة المفاجأة جعلته يتحفظ ولا يبدى اهتمامًا كبيرًا، ربما لأنه لم يكن يدرى ماذا يقول وماذا يفعل!

وألحت عليه خواطر اندفاعية يعرف أنها لن تتحقق أو أنه لن يجرؤ على تحقيقها: أيقول لها الحقيقة؟ أيعترف لها أنه يعرفها منذ سنوات؟ أيحكى لها تفاصيل عن نفسها لن تصدق أن أحداً يعرفها عنها؟ أيقول لها إنها أجمل مخلوق فى الوجود؟ أيدعوها لأن تشاركه بقية حياته؟!

أيسألها عن رسالات غامضة وصلتها عنه تشابه الرسالات الغامضة التى تلقاها عنها؟ هل الرسائل كانت تهيئهما معًا لهذه اللحظة؟ هل كانت تتوقع ظهوره فى يوم من الأيام فى حياتها مثلما توقع ظهورها؟ هل المفاجأة كانت لهما هما الاثنان معًا؟!

وانتهى ما بينهما من عمل، ومضى إلى حال سبيله دون أن يقول لها شيئًا، وانتظر معجزة أخرى تحدث.. انتظر يومين، ثلاثة، أسبوعين، وأصابه قلق أدمى كل جوارحه، شعر أنه قد فقدها، فكر فى أن يتصل بها، ولكنه فى حياته ما كره شيئًا أكثر من التصنع، وما كره شيئًا أكثر من أن يبادئ هو بالاتصال بأى إنسان لأى سبب، وفضَّل العذاب على الخروج عن مبادئه. وهى ليست مبادئ بالمعنى الدقيق ولكن هكذا هو، هذه هى شخصيته، هذه هى إمكاناته، هذه هى حدوده، أو هذه هى إحدى نقاط ضعفه أو قل هذه هى بعض عقده، إذ يشعر بحرج شديد حين يبادئ بالاتصال بأى إنسان لأى سبب، ويشعر بالحرج الأكبر حين يَشْتَمُّ أنه يريد

شيئًا، أو يسأل عن شيء . . وامتنع عن الاتصال رغم أن هناك ألف حجة لذلك .

وفى يوم سعيد لم تشهد حياته يومًا أجمل منه اتصلت هى به، وقبل أن تنطق بكلماتها الأولى قال : لقد كنت أنتظر هذه المكالمة، فقالت له مباشرة : ولقد كنت أنتظر أن تبادئ أنت بالاتصال!

واتفقا على موعد لقاء .

●●●

محتويات الكتاب

الموضوع	الصفحة
القتل من أجل الحياة	٣
رق الحبيب	١٣
أمى . . شقيقتى . . صديقتى	٢١
بكارة الإحساس	٣١
أسطورة من جنوب الوادى	٣٩
أسطورة من قلب أسطورة	٤٦
٦٠ - ٧٠ - ٨٠ - ٩٠	٥٤
المباغتة والابتلاع	٦٤
مدد من السماء	٧٤
امرأة تصادق رجلاً	٨٤
امرأة طموح	٩٣
الشياطين تتحدى مدينة	١٠٢
رجل وامرأتان	١١٢
الدفء	١٢٠
زوجة الأخ	١٢٧
الأشياء	١٣٦

تناقضات عاطفية ١٤٣
امرأة وثلاثة رجال ١٥٢
اثنان على الأرجوحة ١٦١
امرأة عاجزة عن الحب ١٦٨
المؤانسة ١٧٨
إلغاء البشر ١٨٥
إرهاصات ١٩١

●●●